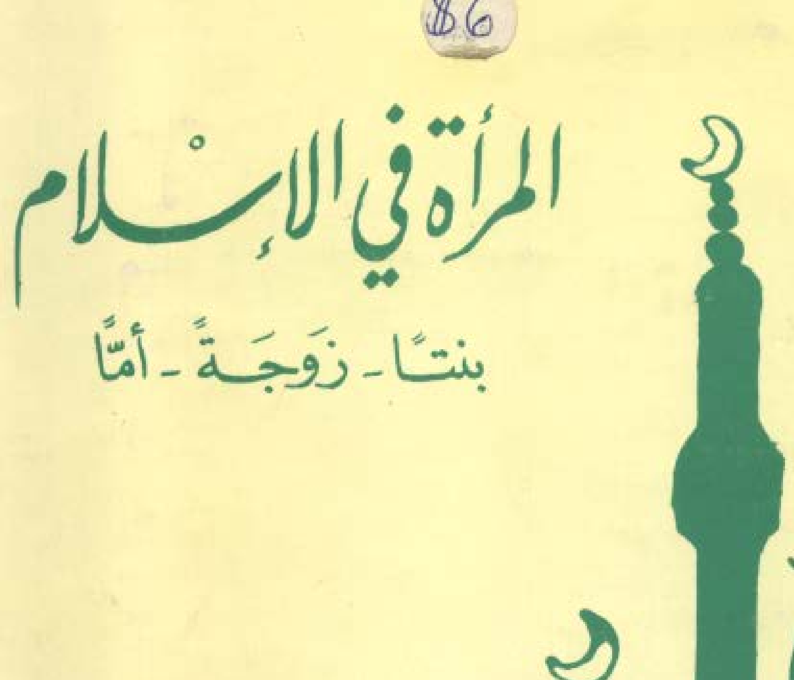
الدكتورة ليلى حسن سعد الدين

الجامعة الاردنية - مركز اللغات



المرأة في الإسلام

بنتاً - زوجةً - أماً





الناشر

دار الفكر للنشر والتوزيع

المرأة في الإسلام

بنتًا - زوجة - أمًّا

الدكتورة ليلى حسن سعد الدين
الجامعة الاردنية - مركز اللغات

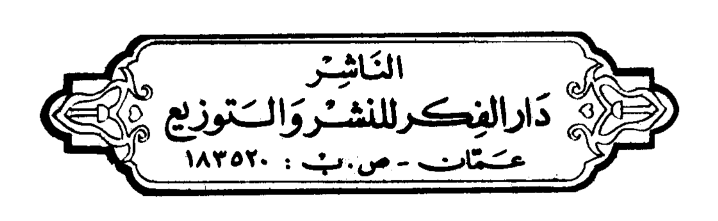
المرأة في الإسلام

بنتاً - زوجةً - أمّاً

[AL-MAR'AH FI AL-ISLAM]

SA'D AL-DIN

١٩٨٤


الناشر
دار الفكر للنشر والتوزيع
عمّان - ص.ب : ١٨٣٥٢٠


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين وبعد :

«فالمراة في الاسلام » هو مجموعة أحاديث اذاعية تدمتها في الاذاعة الأردنية في صباح كل ثلاثاء .. ودارت معظمها حول المراة وقضاياها الحياتية من خلال القرآن الكريم وقبس النبوة .

وعالجت المراة في جميع أطوار حياتها بنتا وزوجة وأما ، وما جعل الاسلام لها من مكان تحوطه الرحمة والشفقة والعطف والحب ، ثم دور الرجل منها في عالمها العظيم بما له من حقوق وما عليه من واجبات .

كما دارت بعض الأحاديث حول النفس البشرية وما تتنازعها من أهواء ، صدورا في هذا عن القرآن العظيم والحديث الشريف وأقوال الصحابة ، وربطه بالحياة المعاشة في مواقف وصور .

بالاضافة الى ذلك فهنالك الكثير من الموضوعات العامة التي تصور الحياة واهلها في أدق حالاتهم ، بما ينزعون اليه من منازع تبعدهم عن مصدر الوحي الاصيل بما يخضعون له من ظروف حياتية تقهرهم ، وكان الاصل ان يخضعوها ويقهروها بشدة تقربهم من الخالق سبحانه ، وبمدى خوفهم منه عز وجل ، دون أن تغفل هذه الاحاديث الحس الادبي الذي هو الاصل بالنسبة للكاتبة .. « ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم » .

دكتورة ليلى حسن سعدالدين

الحلقـــة الاولـــى

الانثى بنتـــأ في الاســـلام

لم يكن اهتمام الاسلام بالمرأة أمرا عارضا ، وانما هو اهتمام نابع من صميم هذا الدين وجوهره ، الذي يرفع من قيمة الانسان ليكون جديرا بخلافة الله على هذه الارض «واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة» .

والمرأة هي النصف الاخر لهذا الانسان ، وقد بوأها الاسلام مكانة سامية ، بعد أن أهدرت حقوقها القوانين الارضية ، حتى كانت سلعة تباع وتشترى ، ووهبها الاسلام نفسها ، واعطاها حرية الكلمة والشعور والحس ، ومضى معها على الدرب الطويل منذ ولادتها ، فقد كرمها مولودا حين حرم وأدها ، واعطاها حق الحيـــاة «واذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت» . فأي ذنب جنته المولودة حتى استحقت عليه الوأد قبل ان ترى النـــور ؟

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، فقد بلغ بالعرب كره البنات الى درجة انهم جعلوا البنات لله سبحانه ، وكانت ولادة البنت عارا يخجل منه العربي ، «ويجعلون لله البنات سبحانه ،ولهم ما يشتهون ، واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون ام يدسه في التراب ، الا ساء ما يحكمون» .

والى جانب الوأد قاست الانثى ظلما من نوع آخر هو السبي ، فقد عد الجاهلون المرأة من سقط المتاع الذي ينهب في الحروب ، ويتصرف به كيفما شاء من بيع وتمتع

وامتهان واسترقاق ، غير آبهين لارحام قطعت ، وانساب اختلطت وجاء الاسلام وحرم السبي .

وكان امتهان لانسانية المراة ، فسوى الاسلام بين دمها ودم الرجل ، صار يقتل قاتلها ، كما سوى بينهما في حد القذف .

وكان استئثار ذويهن بالمهور ، فجعلها الاسلام حقا لهن خالصا ، لا ينزعه الا ظالم «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة» .

وكان حرمان من ميراث ، فقرر لهن الاسلام حقوقهن فيه «للذكر مثل حظ الانثييـــن» .

وكان اساءة عشرة لهن ، فنزل وحي الله «وعاشروهن بالمعروف» .

تلك بعض مظالم المراة قبل الاسلام ، فقضى عليها الدين الجديد وعلى غيرها قضاء تاما ، واعطى الانثى من الحقوق ما جعلها مساوية للرجل ، حتى اعتدت بنفسها الاعتداد كله ، فقالت فيها عائشة رضي الله عنها «انما النساء شـــقائق الرجـــال» .

ولقد جاهد الرسول صلى الله عليه وسلم جهادا عنيفا لانتزاع ما بقي في نفوس العرب من كره البنات . وكان صلوات الله عليه قدوة حسنة مع ازواجـــه وبناته . حدثت عائشة رضي الله عنها «دخلت علي امراة ومعها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندي شيئا غير تمرة واحدة ، فأعطيتها اياها ، فقسمتها بين ابنتيها ، ولم تأكل منها ، ثم قامت فخرجت . فدخل النبي صلى الله عليه وسلم علينا فأخبرتـــه فقال «من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن اليهن كن له سترا من النار» .

ولرسول الله صلى الله عليه وسلم احاديث تفجر القلوب رحمة وحنانا على البنات «من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن كن له حجابا من النار يوم القيامة» . وقوله صلى الله عليه وسلم «من عال ثلاث بنات او ثلاث اخوات او اختين او بنتين فأدبهن واحسن اليهن وزوجهن فله الجنة» .

وله صلى الله عليه وسلم «من كان له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها ، وغذاها فأحسن غذاءها ، واسبغ عليها من النعمة التي اسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار الى الجنة» .

ويؤكد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على المساواة في العطاء بين البنت والولد «ساووا بين أولادكم في العطية ، فلو كنت مفضلا احدا لفضلت النساء».

ويشدد الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه المساواة ، ويجعل ثوابها الجنة «من كانت له انثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها ادخله الله تعالى الجنة» .

والرسول صلى الله عليه وسلم قدوة عظيمة عطفا وحنانا وصورة رائعة في معاملة الانثى ، وهي احوج ما تكون الى مثل هذا العطف وذلك الحنان ، فقد كانت فاطمة تدخل عليه فيقوم لها ويأخذ بيدها ويقبلها ويجلسها في مجلسه . وكان اذا اراد سفرا جعلها آخر العهد به ، ثم صلى ركعتين ومضى . فاذا قدم من سفر جعلها أول العهد به ، بعد ان يبدأ بالمسجد ، فيصلي ركعتين . وكان يحمل امامه بنت زينب ابنته ، وهو يصلي الفريضة ، فاذا سجد وضعها واذا قام رفعها .

وحدثت الصديقة بنت الصديق انه اهديت لرسول الله هدية فيها قلادة من جزع ، فقال لاهدينها الى أحب أهلي الي . فقالت النساء ذهبت بها ابنة أبي قحافة ، ودهشوا حين دعا الرسول امامة فأعلق القلادة في عنقها .

وهذه الانثى الطفلة احاطها رسول الهدى بحبه في ارق مشاعرها ، وادق حالاتها . فعن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم «من فرح ابنته فكأنما أعتق رقبة من ولد اسماعيل ، ومن اقر عين ابنة فكأنما بكى من خشية الله» .

كل ذلك غيض من فيض ، وأمضي مع هذه الطفلة ، وقد بلغت بلوغ الصبا حتى أضحت زوجة يحيطها الاسلام والرسول بفيض لا يغيض من الرعاية والاكرام

والتبجيل . وقد وضع لها عنوانا يفيض رحمة والفة وامنا يقول سبحانه «هن لباس لكم وانتم لباس لهن» . واللباس يعني الحماية والامن والجمال ، واعلى من ذلك واكثر الانس والالفة ، وهو وصف عظيم للمجالسة والمؤانسة التي اوجدها الخالق عز وجل بين الرجل والمرأة . فهي والحالة هذه ترتبط بالرجل في جميع ادوار حياتها. بين سمعها وبصرها ينشأ الطفل ، وتحت رعايتها يكبر ، وبآدابها واخلاقها يتغذى. وهي منبع الحب والاخلاص والوفاء ، هي منار الفضيلة ومجمع الاخلاق الكريمة ، هي موئل الرجل وعونه في شدته ، ثم هي نوره وبصيرته ، بعينها يبصر ، وبرأيها يسعى ويدبر ، وبعطفها وحنانها يغالب الحياة وينتصر .

من هنا كانت عناية الاسلام بهذه الزوجة ، فوضع لها اعدل التشريع واقومه . ووقف الرسول صلى الله عليه وسلم يدافع عنها دفاعا يرسم لها فيه صورة الرجل الذي ستكون له شريكة وقال صلى الله عليه وسلم «اذا اتاكم من ترضون دينه وامانته فزوجوه ، الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير» .

والدين الحنيف ، دين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يضع حول المرأة سياجا من الامان والاستقرار ، فهو يأمر بالمساواة الحقة بين الزوجين ، ويبين حقوق كل منهما قال سبحانه «ولهن مثل الذي عليهن ، بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة» . صدق الله العظيم .

الحلقـــة الثانيـــة

الانثى زوجة في الاسلام

لقد كرم الاسلام الانثى اعظم التكريم ، واهتم بها كل الاهتمام ، بنتا وزوجـــة وأما ، ووقف الرسول صلى الله عليه وسلم الى جانبها في جميع مراحل حياتها ، مؤكدا في ذلك دين الله الاسلام ، الذي وضع المراة في أطر الامان والاطمئنان ، فساوى بينها وبين الرجل ، وقضى لها بالسعادة الواجبة عليه قال سبحانـــه «فأمسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف» .

وعظم القرآن شأن الرابطة الزوجية ، وحث على الوفاق بين الزوجين ، وحث الزوج بصورة خاصة على حسن المعاشرة ، وعدم الاستجابة لعاطفة النفـــس ونزواتها ، وبذل الجهد في الصلح والتوفيق بين الزوجين ، مع عطف على المراة بنوع خاص بمختلف الصور في مختلف المجالات . قال الرسول (ص) «النساء شقائق الرجـــال» .

وأسبغ القرآن على الحياة الزوجية معنى رائعا بقوله سبحانه «ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» . فهي تذكر الزوجين معا بمدى ما في هذه الحياة من هدوء وسكينة واستقرار ، على اساس ما اوجده فيهما من قابلية التواد والتراحم ، وحيث توجب عليهما بطبيعة الحال ان يفهماها ويمارساها على هذا الوجه ، وتوجب عليهما ان يكون اساس المودة والرحمة الذي تقوم عليه متقابلا في الممارسة والفهم والشعور على قدم المساواة .

والزوجية الصالحة يجب ان تقوم على المودة والرحمة ، وكل زواج يقوم على غيرهما ، لا يقوم على النهج الاسلامي الصحيح ، ثم ان الله تعالى وهو العليم بخلقه ، رسم للازواج سبيل التصالح ان وقع بينهما شقاق في قوله سبحانه «وان خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكما من اهله ، وحكما من اهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا» . وقوله جل وعلا «وان امراة خافت من بعلها نشوزا او اعراضا ، فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما ، والصلح خير ، واحضرت الانفس الشح ، وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا» .

والمتأمل في كتاب الله الكريم يرى انه حرص في أكثر من موضوع على صيانة كيان الاسرة ، ووضع الحلول لتفادي مساوىء افتراق الزوجين. وكفى عظة للمؤمنين ما حكاه الله في سورة المجادلة اذ يستمع الله في عليائه لزوجة تجادل في زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله ، والله يسمع تحاوركما ، ان الله سميع بصير» .

وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها في قصة هذه المجادلة «تبارك الذي وسع سمعه كل شيء ، اني لاسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى علي بعضه ، وهي تشتكي زوجها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول : يا رسول الله ، أكل شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى اذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم اني اشكو اليك ، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله» .

والمصطفى صلوات الله عليه هو المثل الاعلى للزوج ، فهو يقول «خيركم خيركم لاهله ، وانا خيركم لاهلي» . والحديث يوجب رفق الرجل بالمراة ، واحترام احاسيسها ومشاعرها ، وان يكون لهم الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك المثال والكمال ، فقد كان ابر زوج ، واوفى عشير ، يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويكون في مهنة اهله ، ولقد كن يتظاهرن عليه ، ويسألنه احيانا ما لا يستطيع

حتى خيرهن الله تعالى بقوله «يا أيها النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فان الله اعد للمحسنات منكن اجرا عظيما» . وقال النبي لعائشة : لا تعجلي براي تستشيري ابويك ، فقالت أفيك استشير ابوي يا رسول الله ؟ اني اختار الله ورسوله والدار الآخرة . وكذلك قال نساؤه أجمعين .

والزوجة احدى بنات آدم عليه السلام «كل بني آدم خطاء» كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم . وفي هذا ابراز لضعف المراة ، وتصريح الى ما قد تقع فيه من الخطأ ، ولكنه الخطأ الذي لا تهتز له كيان الاسرة . وهذا يحتاج معه الرجل الى الوقوف الى جانب الزوجة ، يرشدها وينصحها ويهديها ، واذا شاب هذا النصح بعض الشدة ، فهي الشدة التي لا يظلمها بها . وقد قال رجل للحسن . يحطب ابنتي الكثيرون فممن ازوجها ؟ فقال : زوجها ممن يتقي الله ، فانه ان احبها أكرمها ، وان ابغضها لم يظلمها .

والرسول صلى الله عليه وسلم اعظم قدوة في نصح الزوجة وارشادها ، حتى وان كانت هذه الزوجة ابنته الاثيرة المحبوبة فاطمة ، فقد كان في الامام علي شدة على السيدة فاطمة ، فقالت يوما : والله لاشكونك الى رسول الله ، فانطلقت ، وانطلق علي بأثرها ، فقام بحيث يسمع كلامها ، فشكت للرسول غلظ علي وشدته عليها . فقال : يا بنية اسمعي واستمعي واعقلي ، انه لا امراة ، لا تأتي هوى زوجها وهو ساكت . قال علي : فكففت عما كنت اصنع ، وقلت : والله لا آتي شيئا تكرهينه أبدا» .

وفي رد الرسول صلى الله عليه وسلم على فاطمة ابنته حث للزوجة على طاعة زوجها ، وان على الزوجة ان تسلس قيادها لزوجها فيما يفيد وينفع ، حتى تهيىء لافراد الاسرة اجواء الامان والحماية والاستقرار والمودة ، ليكونوا اعضاء اسوياء تمضي بهما سفينة الحياة بعيدا عن الهزات التي قد تتعرض لها ، حتى تتوافر في مجتمع تحكمه عوامل القوة البناءة .

وفي رد الرسول (صلى الله عليه وسلم) الشدة المغلفة بالحب لهذه الزوجة وهي ابنته ، ففي رده عليها رد على الزوجات جميعا . وهو المعلم القدوة فيما يقول او يفعل او يقر ، ويوم جاءت فاطمة تطلب من الرسول — وهي بضعته وام ابنيه — خادما يعينها على بعض امر بيتها قال : اتقي الله يا فاطمة ، لا اعطيك وادع اهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع .

وفي رواية ابي داود «اتقي الله يا فاطمة ، وادي فريضة ربك ، واعملي عمل اهلك ، فاذا اخذت مضجعك فسمي الله ثلاثا وثلاثين ، واحمدي ثلاثا وثلاثين ، وكبري اربعا وثلاثين ، فهي خير لك من خادم» . قالت «رضيت عن الله وعن رسوله» .

والاسلام حفظ للمراة كيانها ، واعطاها قدرها وقيمتها ، فهي الاساس المتين الذي تقوم عليه رفعة الاسرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تخيروا لنطفكم فان العرق دساس» . وكان سيدنا عمر بن الخطاب يقول «اياكم وخضراء الدمن فانها تلد مثل اصلها ، وعليكم بذات الاعراق فانها تلد مثل ابيها وعمها واخيها». وقال صلى الله عليه وسلم «تخيروا لنطفكم فان النساء يلدن اشباه اخوانهن واخواتهن» .

صورة أخرى اثبتها هنا للزوجة ، وهي صورة تؤكد حق الفتاة في ابداء رايها فيمن سيكون لها زوجا فقد «جاءت فتاة الى رسول الله فقالت : ان ابي زوجني ابن اخيه ليرفع به خسيسته ، فجعل الامر اليها . فقالت : قد اجزت ابي ، ولكن اردت ان اعلم النساء ان ليس للآباء من الامر شيء» .

كان ذلك صورة للزوجة في الاسلام ، وما كان لها من تقدير واحترام اعطاه لها دين الله ، دين السماء . الاسلام . وقد حفظت الزوجة المسلمة ذلك التقدير بما تقوم به ازاء زوجها واولادها من العناية والرعاية ، فاستحقت بذلك لقب الشرف الابدي ، الزوجة المسلمة بقلبها العامر بالايمان وتقوى الله ، بعيدا عن جحود زوجة الغرب الذي يدعي الحضارة ، وقد حمل الينا واقع الغرب قصة زوجة اوروبية

ليست من نسج الخيال ، ولكنها من صميم واقعهم ، وقد نبذت هذه الزوجة — وهي من اسرة كبيرة — ابنتها ، وعمرها اربع سنوات ، وتركتها لمن يتبناها في بلاد بعيدة ، والذي دفع هذه الزوجة الى ذلك ليس الفقر ، وانما هو الجحود والنكران لاعظم غرائز الانثى ، غريزة الامومة ، فهي تقول : انها لا تحب ابنتها ، ولا تشعر نحوها بأية عاطفة ، وعلى ذلك فمن الخير لها وللبنت ان يتبناها المحروم من البنوة ، ومن يتوق لهـا .

ولن اعلق على ذلك ، وان قيل انها مسألة فردية . ولكنها صورة ، او بعض صورة للغرب الذي غفل عن حقيقة الترابط في الاسرة . وسيبقى الاسلام في ذلك قمة شماء في دعم اركان الاسرة .

ولن اترك الزوجـة في الاسلام دون تجسيم لموقف الرسول صلى الله عليه وسلم من آخر خطبة له في حجة الوداع في التاسع من ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة ، حين احل الزوجة مكانها من قلب زوجها فقال «أيها الناس ، ان لنسائكم عليكم حقا ، انما النساء عندكم عوان ، لا يملكن لانفسهن شيئا ، اتخذتموهن بأمانة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيرا . الا هل بلغت ؟ اللهـم اشـهد !» .

صدق رسول الله .

الحلقـة الثالثـة

الانثى امـاً في الاسـلام

أما الام في الاسلام فقد كرمها هذا الدين كل التكريم ، وقدسها كل التقديس ، فقد قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه «الجنة تحت اقدام الامهات» .

فهذه الام هي اعظم من نطق الوجود ، فقد حملتنا تسعة اشهر ، تتقلب بين احشائها في ظلمات ثلاث «يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمـات ثلاث ، ذلكم الله ربكم ، له الملك ، لا اله الا هو فأنى تصرفون» . فتقر حركتنـا هنالك عينها وتهفو نفسها الى اللحظة التي تحفها فيها المخاطر ، وتختلجها فيها من شتى جوانبها الآلام ، وهي تدفعنا الى نور الوجود ، وفسحة الحياة . فان اي بر لا يؤدي لوالدينا حق الشكر ، ولا يوفيهما بعض الاجر . ولقد جاء رجل الى رسول الله يستأذنه في الخروج للغزو ، فسأله : هل من والديك احد حي ؟ قال كلاهما . فقال صلوات الله عليه : ففيهما جاهد . اي ابلغ جهدك في برهما والاحسان اليهما . فذلك يقوم لك عند الله مقام الجهاد في سبيله .

وحين سأل صحابي رسول الله «من أحق الناس بحسن صحابتي؟» قال : امك . قال : ثم من ؟ قال : امك . قال : ثم من ؟ قال : امك . قال : ثم من ؟ قال : ابـوك .

والام هي العطاء هي التفاني ، وهي التضحية والبذل دون مقابل ، تشقى لاسعاد اولادها ، وتكد لاجل راحتهم ، وتسهر حتى يناموا ، وهي بذلك كله سعيدة

راضية . امدها الله سبحانه بصبر من عنده ، لا تثور ولا تغضب ، واذا غضبت او ثارت فمن باب الرحمة عليهم ، والرفق بهم ، حتى في اقصى حالات غضبهـا نسمع لسان حالها يقول :

ادعــو عليــه وقلبـــي يقــول يــا رب لا لا

والاسلام حين كرم الام في كتاب الله العزيز ، وبلسان رسول البشرية الهادي، فهو يكرم سر الله الاعظم علي هذه الارض ، السر الذي لا تدركه الانثى الا في هذا الدور من ادوار حياتها فـ «الجنة تحت اقدام الامهات» وهذا يلفت الانظار الى صور رائعة ، تبرز في القرآن مزيد ما استهدفت له الام من شدائد ومشاق ، وما وهبت من عواطف كريمة في مراحل حياتنا . قال تعالى «ووصينا الانسان بوالديه حملتــه امه وهنا على وهن» وقال سبحانه «ووصينا الانسان بوالديه احسانا ، حملته امه كرها ووضعته كرها» . ثم تجلو لنا الآية صورة فذة لابن بار فيقول تعالى «وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ، حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال : رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي ، وان اعمل صالحا ترضاه . واصلح لي في ذريتي . اني تبت اليك واني من المسلمين . اولئك الذين نتقبل عنهم احسن ماعملوا ، ونتجاوز عن سيئاتهم في اصحاب الجنة ، وعد الصدق الذي كانــوا يوعـــدون» .

وليس بر الوالدين القيام على شؤونهما في حياتهما فحسب ، بل يتعدى ذلك الى ما بعد هذه الحيا ة. قال مالك بن ربيعة ، بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل من بني مسلمة فقال : يا رسول الله : هل بقي من بر ابوي شيء ابرهما به بعد وفاتهما ؟ قال : نعم . الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما ، واكرام صديقتهما ، وصلة الرحم التي لا توصل الا بهما» .

والله سبحانه قد شفع الاحسان الى الوالدين بتوحيده . ثم ضيق الامر في مراعاة التوصية بهما ، حتى لم يرخص في ادنى كلمة تنفلت من التضجر مع موجبات الضجر ، ومع احوال لا يكاد يصبر الانسان معها «وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه

وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا» .

ولقد جعل الله شكر الشاكرين لانعمه لا يتم على خير وجوهه حتى يمازجه شكر الوالدين فقال سبحانه «ان اشكر لي ولوالديك الي المصير» .

وبلغ البر بالام حدا كبيرا ، وحفل تاريخ الاسلام بصور رائعة لابرار بوالديهم، فكان علي زين العابدين يقول «أخاف ان تمتد يدي الى ما سبقت اليه عينها فأكون قد عققتها» . وذلك كان يقوله حين يجلس مع امه يأكل ، فلا يمد يده قبلها الى الطعـــام .

وورد في الصحيفة السجادية للامام زين العابدين في فصل «دعاؤه لابويه» عليهم السلام «اللهم اجعلني اهابهما هيبة السلطان العسوف ، وابرهما بر الام الرؤوف ، واجعل طاعتي لوالدي ، وبري بهما اقر لعيني من رقدة الوسنان ، واثلج لصدري من شربة الظمآن ، حتى اوثر على هواي هواهما ، واقدم على رضاي رضاهما ، واستكثر برهما وان قل ، واستقل بري بهما وان كثر . اللهم وما تعديـــا علي فيه من قول ، او اسرفا علي فيه من فعل ، او ضيعاه من حق ، أو قصر بي عنه من واجب ، فقد وهبته لهما ، وجدت به عليهما ، ورغبت اليك في وضع تبعته عنهما . فاني لا اتهمهما على نفسي ، ولا استبطئهما في بري ، ولا اكره ما توليا من امري» .

أين اذن يا الهي طول شغلهما بتربيتي ، واين شدة تعبهما في حراستي ؟ واين اقتارهما على انفسهما للتوسعة علي ؟ هيهات ما يستوفيان مني حقهما ، ولا ادرك ما يجب علي لهما ، ولا انا قاض وظيفة خدمتهما .

ويقابل هذا الجانب المضيء من بر الوالدين صورة قاتمة لابناء عميت قلوبهم عن الحق ، وجحدوا اعظم نعم الله سبحانه ، فعقوا امهاتهم ، ففي السنة ان علقمـــة كان يعاني سكرات الموت ، واصحابه يلقنونه الشهادة فلا ينطق بها لسانـــه ،

فأخبروا الرسول بخبره ، فسأل امه عنه . فذكرت صومه وصلاته وعبادتــه . فقال : ما عن هذا سألتك ، ولكن كيف بره بك ؟ فقالت يا رسول الله اني عليــه ساخطة واجدة . فقال صلى الله عليه وسلم لاصحابه . غضب امه عليه عقد لسانه عن لا اله الا الله . ايتوني بحطب احرقه . وكان الرسول يريد ان يحرك فيها عاطفة الاحسان والغفران . فقالت : ابني وحشاشة قلبي تحرقه يا رسول الله. فبين لها ان النار مثواه الا ان ترضى عليه . فأشهدت الله ورسوله من فورها انها عفت عنه . فعاد الصحابة الى علقمة ، فسمعوه يفيض بالشهادتين لسانه . وقال الرسول (ص) : الحمد لله الذي انقذه بي من النار .

ولن اعلق على هذه القصة ، فان احداثها الرهيبــة ، تجسم العقوق من ابن تقف منه امه هذا الموقف ، ولا يمكن لام ان تقف كهذا الموقف ما لم يكن عقوق ابنها بلغ حدا حجب معه اقدس عاطفة سماوية ، عاطفة الام .

وتاريخ الاسلام حافل بقصص امهات عظيمات خلدهن التاريخ ، وتناقلت الاجيال اخبارهن ، واكتفي بواحدة منهن هي اسماء بنت ابي بكر الصديق رضي الله عنه . وانقل لها صورتين اثنتين : الاولى صورتها زوجة طائعة صابرة . والثانية صورة الام التي تفخر بها كل ام .

فقد كانت اسماء بنت ابي بكر زوجة للزبير بن العوام — رضي الله عنه — تزوجها وهو فقير ، فعملت معه في الحقل . وكانت تحمل النوى على رأسها لتعلف به بعيرها . فرآها الرسول وهي على هذه الحال يوما . فأراد ان يركبها خلفه على بعيره . فرغبت في ذلك . ثم ذكرت غيرة زوجها ، فاعتذرت للرسول ، وحدثت بذلك زوجها بعد ذلك . فقال «والله لحملك النوى على رأسك اهون علي من ركوبــك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم ينكر عليه الرسول مقالته ، لما يعلم من غيرته رضي الله عنه .

تلك صورة اسماء الزوجة . اما اسماء الام فقد دفعت ابنها عبدالله بن الزبير الى الشهادة ، بعد ان دانت له العراق والحجاز واليمن ثماني سنين . وتمت له

امرة المؤمنين . ثم لم يلبث ان انتقص منه عبدالملك العراق . ورماه بالحجاج الذي لحق به حتى الجاه الى مكة . واشتد اوار الحرب بينهما ، حتى دخل على امه يستلهمها الراي فيما يعد به الحجاج ويمني ، او في مواصلة الجهاد . فقالت له « يا بني ان الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح » في كلمات وضاء كلها ايمان وتضحية. وتم تنكيل الحجاج بابن الزبير فسلخ جلده وحشاه تبنا وعلقه . والحجاج ينتظر ان تتوسل اسماء اليه فينزل ابنها المعلق . كل ذلك واسماء ثابتة بالايمان . ولم تزد على قولها للحجاج : اما آن لهذا الراكب ان يترجل ؟

وبعد فأقول لقد بلغ الاسلام المدى في تكريم المراة ، فجعل لها حضانة اولادها حين تفترق عن زوجها ، ثم لأمها قبل ان يجعلها للزوج او للنساء من أهله . واشترط لمصلحة الاولاد في الحاضنة شروط الحرية والبلوغ والعقل والقدرة على صيانة الصغار وتربيتهم . وان تكون مأمونة في سيرتها ، غير متزوجة بأجنبي من الصغير ، واسقط حق الفاسق الماجن في حضانة البنت الصغيرة . على حين لم يسقطها عن الام غير المسلمة بالنسبة للولد المسلم ، الا اذا اصبح يفهم معنى الدين ، ويخشى عليه ان يألف غير دينه .

وقد حرص الاسلام على استقلال شخصية المراة على عكس ما هي عليه في ظل الحضارة المادية والنور الصناعي في اوروبا وغيرها .

ويقول سيد قطب «وحسب الاسلام ما كفل للمراة من مساواة دينية ، ومن مساواة في التملك والكسب ، وما حقق لها من ضمانات في الزواج باذنها ورضاها دون اكراه ولا اهمال» وفي مهرها « فآتوهن اجورهن فريضة» وفي سائر حقوقها الزوجية ، زوجة او مطلقة «فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا» . «وعاشرهن بالمعروف» .

كان ما تقدم جانبا يسيرا من صورة الانثى في الاسلام . وهي العضو الفعال في أمة قال فيها سبحانه «كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر» . وهي امة تدين بدين الله ، الاسلام و «ان الدين عند الله الاسلام» .

آبـاء وابنـاء

قال تعالى : «آباؤكـم وابناؤكـم لا تدرون أيهم أقرب لكـم نفعا» .

كثيرا ما نسمع بعضهم يقول : لماذا يشقى الانسان ويكد ويتعب من اجل أبنائه ، فماذا سيصنع الابناء لآبائهم ؟ .

بل ان بعضهم يمضي اكثر من ذلك فيقول : لن اصنع لابنائي اكث رمما صنعه ابي لي .

فكأن زماننا هو زمن آبائنا ، كما ان زمن آبائنا لم يكن زمن اجدادنا وهكذا .

يريدون ضمان المستقبل الذي علمه بيد مصرف الامور سبحانه ، فيضيعون معه حاضرهم ، وتضيع معه لحظات هنائهم وسعادتهم بالابوة او الامومة .

أو كأن الابوة والامومة صفقة تجارية مشروطة بالاخذ مقابل العطاء .

وينسى هؤلاء او يتناسون ان الابوة والامومة عطاء وبذل وتفان بمقدار ما تجود به طاقاته وقدراته وزمانه ومكانه ، انطلاقا مما قاله القدماء «غرسوا فأكلنا ونغرس فيأكلون» .

ولو كان الامر خلاف هذا لاختل توازن الحياة ، ولما ارضعت ام ولدها ، ولا اشفق والد على ولده .

فتلك سنة الحياة وحكمة الله سبحانه «فلن تجد لسنة الله تبديلا» «ولن تجد لسنة الله تحويلا» .

وحين يتحدث اولئك بذلك المنطق المعكوس فانما هو انعكاس لمحاولتهم التنصل

من مسؤوليات الحياة ، بل اقدس المسؤوليات على الاطلاق مسؤولية تربية الابن وتنشئته وتأديبه وتهذيبه ، وهو ريحانة من الجنة كما يقول رسول الله (ص) .

فماذا يرجو الآباء والامهات من ابنائهم غير ان يكونوا من افضل الناس في حياة يتصارع فيها الاحياء على البقاء ؟

فليس يخفى علينا جسامة المهمة وفداحة المسؤولية التي يضطلع بها الآباء والامهات ، فهي تهيىء الابناء لزمان غير زمانهم ، وهنا تكمن الخطورة ، يقول رسول الله (ص) «ادبوا اولادكم بغير ادبكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم» .

فالامومة والابوة عطاء بلا مقابل . وتضحية بدون حدود ، وتفان بغير ثمن . وليس عبثا ان يجعل الله سبحانه ارضاء الوالدين بعد ارضائه «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا» .

وماذا يقدم الابناء لآبائهم ؟ فان ما يقدمونه لا يفي بذرة عطف او تضحية او تفان قدمها الآباء . بل ان حياة الابناء نفسها لا تعدل لحظة من لحظات مكابدة الآباء في سبيل تربيتهم . قال رسول الله (ص) : «لن يجزي ولد والده حتى يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه» .

وحياة الابن نفسها ملك لابيه يقول صلى الله عليه وسلم «انت ومالك لابيك» .

أبوة متجددة وامومة زكية معطاءة ، ومقياس هذه العاطفة المقدسة — فيما ارى — ان الابوين يأبيان ان يكون من هو افضل منهما ، اما حين يصل الامر الى ابنهما فهما يحبان ان يكون افضل منهما ومن الناس جميعا .

ومن هذا المنطق يكون استخفاف الوالدين بكل صعب ، واستهانة كل خطب في سبيل الابناء ، وتوفير الحياة الكريمة لهم ، المزودة بالايمان والفضيلة والاقدام .

هذا هو مسار الابوة والامومة كما هو مقدر في الحياة . الآباء يشقون لاجل ابنائهم ، والابناء يكدون من اجل الاحفاد في اطار زمانهم .

فهي شرعة الله تعالى ومنهاجه «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا» (المائدة : ٤٨).
اما ان يدور في حياتنا كثير من تعبيرات اللامسؤولية والتحلل من جد الحياة الى هزلها فذلك ما يعيب غريزة الامومة والابوة ، وينقص من قدرها في نفوس أصحابها .

بل ان من العبث ان يطلق هذا اللفظ المقدس على اولئك الذين ينسون او يتناسون انهم آباء وامهات ، ماضين الى انفسهم يشبعونها عبثا وفراغا ، تاركين ابناءهم يعيشون حسبما يشاءون وكيفما يهوون ، بعيدا عن المراقبة الدائمة الدائبة ، والعين الساهرة والضمير المستيقظ ابدا .

فالاسرة بجميع اعضائها نواة للمجتمع الكبير ، اقامها القرآن الكريم على أساس من الحق والعدل والاحسان ، وهي تقوم على البذل والرعاية من الآباء ، وعلى الطاعة والبر والاحسان من جانب الابناء .

وبمقدار ما يزرع الآباء للابناء يحصدون ، فلكل دوره ، وواجبه ، ولكل حقه . قيل : «يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما ؟ قال : هما جنتك ونارك» . صدق رسول الله

رسالة الام المسلمة

حديثي هنا يتعلق بالحياة في اقدس جوانبها ، بل في اقدس مهمة نيطت بالام ، تلك هي رسالتها ازاء ابنتها .

ولست هنا صدد الحديث في حقوق المراة ، فهذا امر بدهي لا يشك فيه عاقل. فهي اي المراة في جوهر قوله سبحانه «ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجـا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة» .

فالمراة في الاسرة هي العنصر الثابت والركيزة الدائمة ، وهي النبع الطبيعي للعطف والحنان ، في حين ان الرجل هو عامل ارتباط الاسرة بما هو خارجها ، فهو الذي يمارس الصراع في الخارج ، مع الطبيعة او المجتمع ، صراعا ماديا لكسب العيش ومعنويا في سبيل عقيدة او دعوة .

المراة الاساس والرجل صراع الحياة

من هذا كله كانت المراة هي البيئة التي يجد فيها افراد الاسرة من زوج واولاد السكينة والطمانينة والامان ما لا يجدونه خارج الاسرة .

وقد لخصت وظيفة المراة الاساسية اروع تلخيص واجمله في حديث الرسول (ص) «خير نساء ركبن الابل ، صالح نساء قريش احناه على ولد في صغره وارعاه على زوج في ذات يده» .

وهذا يؤكد رسالة المراة المقدسة التي لا تعدلها رسالة في الحياة ، فان المراة مهما اوتيت في الحياة الدنيا من مال وعلم وثقافة فذلك كله لا يعادل لحظة واحدة تحياها في بيتها بين افراد اسرتها بسلام وامان .

وذلك يعني امرا واحدا لا بديل له ، هو ان الام هي المسؤولة في المقام الاول عن اولادها . وعلى وجه التحديد اقول هي المسؤولة عن ابنتها ، فكيفما تكن هذه الام تكن ابنتها .

فهي أخطر الامانات واغلاها في مدرسة امها التي هي اول معلمة تتلقى ابنتها على يديها وقلبها وروحها واحساسها اول درس في الحياة . ولكنه الدرس الذي يحدد لها معالم طريقها ان كان خيرا او شرا .

ولا شك ان هذا يتطلب من الام التضحية والتفاني والبذل ، ويحملها على ان تكون القدوة الصالحة لابنتها متانة خلق ، وعزة نفس وثبات قلب وطهارة اعماق وجـــوارح .

وفوق هذا او بعده ان تكون الام لابنتها العين الساهرة التي لا تغفل ولا تنام لحظة قد تتعرض فيها ابنتها الى الشر الذي يرديها في خلقها وعرضها .

ورسالة الام ازاء ابنتها عريضة واسعة لا يحدها حد ، وهذه معروفة بغريزة الامومة التي لا تخطىء .

وأهم جوانب رسالة الام ان تجنب ابنتها المخالطة غير المشروعة في داخـــل البيت وخارجه ، وليس هناك من يجهل خطر المخالطة ، وان كان الكثيرون يتجاهلونها، ويبررون اختلاطهم بشتى المبررات التي تدينهم ،ولا تخرج عن كونها كذبا عـــلى انفسهم . قال رسول الله (ص) «اياكم والخلوة بالنساء والذي نفسي بيده ما خلا رجل بامرأة الا دخل الشيطان بينهما ، ولان يزحم رجلا خنزير ما لطخ بطين او حمأة خير له من ان يزحم منكبه منكب امراةلا تحل له » (البخاري ومسلم والترمذي) .

وماذا يعني هذا غير الابتعاد عن كل ما يثير الغريزة التي تقترب بصاحبها من الحيوان اذ ليس له من هم غير اشباع هذه الغريزة التي عطل فيها العقل والحس والشعور وأردته جسدا وغريزة .

وصور هذا في حياتنا كثيرة لا حصر لها ، في الشارع والسيارة والمتجر وكل مكان . ناهيك عن المخالطة في داخل البيوت ، وهذه يطلق عليها اصحابها عدة اسماء ، وكلها تعطي اختلاطهم صفة الشرعية ، وعذرهم في هذا — حسبما يدعون — ان اختلاطهم عائلي ظاهره الرحمة وباطنه العذاب .

صورة ثانية لهذا الاختلاط والاختلاء تلك الدروس الخصوصية ، حيث يكون فيها الرجل المعلم هو القدوة لتلك الطالبة البريئة ، وبعد الدرس الاول فحسب يختلف الحال ، ويصبح الامر درسا خصوصيا ، ولكن ليس بعلم الله ولكن بعلم الشيطان . وصدق رسول الله (ص) حيث يقول : «ما خلا رجل بامرأة الا همت به او هم بها . قالوا : اولو كانا صالحين يا رسول الله ؟ قال : ولو كانا مريم بنت عمران ويحيى ابن زكريا» .

وتحقيق هذا كثير لا نفتأ نسمعه بين الحين والاخر ، وهو في المقام الاول مسؤولية الام التي تنسى واجبها ازاء ابنتها في غمرة انشغالها بنفسها ومتعها ورواحها ومجيئها وزياراتها التي لا تنتهي ، تاركة ابنتها في فراغ عاطفي تعمقه الايام وتجرها فيه الى متاهات الحياة ومساربها الخفية التي يقودها اليها انسانة في ثوب صديقة تدعي الصداقة ، وقد اوتيت هذه لسانا حلوا وقلبا مرا يزين لهذه الفتاة الشر خيرا ، والرذيلة فضيلة ، وفي هؤلاء قال تعالى : «يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله اعلم بما يكتمون» (آل عمران : ١٦٧) .

وقال رسول الله (ص) في حديثه القدسي «عباد لي يلبسون للناس مسوح الضأن ، وقلوبهم امر من الصبر والسنتهم احلى من العسل . يختلون الناس بينهم . أبي يغترون ام علي يجترئون . فبي اقسمت لالبسنهم فتنة تذر الحكيم فيهم حيران» رواه ابن عساكر عن عائشة .

وهذه المخالطة لفتيات السوء لا تقل في خطورتها عن مخالطة الطرف الاخر ، فهي مخالطة تجر الى الفساد والفجور تحت ستور مختلفة ، وكلها تدفع بالفتاة الى بؤرة الرذيلة حيث لا عودة بعدها . وهذه في مجموعها ادعاء من تلك الفتاة التي تهيأت

للغواية ان لها صديقة ستراجع معها دروسها ، او ان صديقتها مريضة ، او .. او شتى التعلات والاسباب وكلها تحمل الكذب والخيانة ، حيث تمضي بها الى اوكار يتخذها الشيطان مسكنا له ، ووقف عليه امراة باعت نفسها له ، فباتت تشتري البنات لتبيعهن لشيطانها المتمثل في اولئك الذين ماتت ضمائرهم وتبلدت احاسيسهم فباتوا الى الحيوان اقرب وبه الصق .

والجميع في هذه الاوكار اتباع للشيطان ، وعلينا ان نتخيل ما يقدمه لهم شيطانهم ، شيطان الغريزة البهيمية ، والخاسر في هذه المواقف جميع الاطراف ، ولكن خسارة الفتاة افدحها ، عرضها وحياتها هما الثمن .

وأين الام من كل هذا ؟

اقول واين الام القدوة ؟ استغفر الله فلو كانت قدوة لما اصاب ابنتها ما اصابها ، القدوة هي ان تحيط نفسها من الداخل بهالة من القداسة والوقار امام ابنتها مما يحفر في اعماقها ذلك الطهر الذي يحصنها ، وتصبح قداسة الام هي المرآة التي تنعكس فيها حياة ابنتها في مستقبل حياتها بعيدا عن كل اثارة بهيمية ..

ذنب الام انها غفلت عن ابنتها لحظة كانت هي اللحظة التي تحالفت فيها ابنتها مع الشيطان . نامت عين الام فسهرت عين الشيطان الذي بات يتمثل لابنتها في وجوه عدة .

وذنب الام كذلك انها بأنانيتها قد اسلمت ابنتها الى صديقات السوء ، دون ان تجشم نفسها مشقة السؤال عمن صادقت ابنتها ، وهي مشغولة بنفسها حتى لم تبق لها لحظة واحدة تفكر فيها بابنتها ، فكان ان سقطت ابنتها في انياب ثعالب الحياة من خلال مدعيات الصداقة ، يقول رسول الله (ص) «الصاحب رقعة في قميصك فانظر بم ترقعه» ، العقد الفريد ص ٢٠ .

وتخيلوا معي مجتمعا تعوي فيه الذئاب الضارية ، والفريسة فيه هي البنت . كيف يكون حاله والانثى فيه نصفه الفعال ؟

تصوروا مجتمعا تدفن فيه الفضيلة وتنتعش فيه الرذيلة ؟ انه مجتمع ينخر فيه المرض الذي لا برء منه . فالاصل فيه هو الام ، والضحية هي ابنتها ، والشيطان من مات ضميره وشرفه فهيىء لافتراس هذه البنت . وصدق من قال :

ربـــوا البنـــات على الفضيلـــة انهـــا
في الموقفيـــــن لهـــن خـــير وثـــــاق

وعليكمـــــــو ان تستبيـــن بناتكـــــــم
نور الهـــدى وعـــلى الحيـــاء الباقـــي

وصدق رسول الهدى «ان الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ او ضيع» وقال عليه السلام «الزموا اولادكم واحسنوا ادبهم» . وقال (ص) «من كانت له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها كانت له عتقا من النار» .

وصدق رسول الله

الام ورضيعها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كفى بالمرء اثما ان يضيع من يقوت» .
فالحديث الشريف يحمل اهتمامات الاسلام البالغة بالطفولة ، وهي تعتمد اول ما تعتمد على التربة الاولى التي تنبت فيها ، وهي الاسرة وجناحاها الوالدان .

وأطفال اليوم هم عدة الغد وعماد المستقبل . وبمقدار تربيتهم وتنشئتهم وتنمية نوازع الخير فيهم بما فيها من قوة وجراة واعتداد بالنفس يكون حظ المستقبل منهم .
من هذا كله يهون امام الطفولة كل خطب ، ويسهل كل صعب . فهي المرحلة التي تتكون فيها شخصية الطفل سوية خالية من كل عيب اذا ما احسن الوالـــدان تلك التربية وذلك التوجيـــه .

وواجب الوالدين ازاء اطفالهما عسير خطير يحاسبان عليه امام الله سبحانه .
وهو واجب اجتماعي لا يتحقق الا بتعاون اجهزة المجتمع جميعها ، البيـــت والمدرسة واجهزة الاعلام . قال تعالى «يا ايها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نارا وقودها الناس والحجارة» .

فالمجتمعان الصغير اي البيت والكبير اي المجتمع هما المسؤولان امام الله والوطن والضمير . ومن هذه الزاوية اعود الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
فقد كان يفرض لكل مولود مائة درهم من بيت المال ، بل يفرض لكل لقيط مثل هذا القدر ، اذ لم يأخذ الابرياء من اللقطاء بظلم المجرمين من الرجال والنساء . يقول سبحانه «ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكـــم في الدين ومواليكـــم» .

واول هذه الحقوق للطفل هو رضاعه الذي يجريه الله سبحانه وتعالى حليبا في ثدي امه .

فواجب الام ارضاع طفلها اذا تعينت لذلك ، بأن لم توجد امراة غيرها تتولى ذلك ، او كان طفلها لا يقبل غير ثديها ، او كان الاب معسرا لا يستطيع استئجار مرضع ترضع الطفل .

وهذا يشير الى امر آخر ، هو ان الاسلام لم يجعل الرضاعة ارغاما للام تقهر عليه ، ولكن تقوم به عن حب ورضى وطيب خاطر ، وتجاهد لاجله ، فهو يشعرها بعظمة الدور الامومي الذي وهبه الله لها ، وهي ترى الحياة في طفلها تخلق على يديهـــا .

هذا هو الدور الحقيقي للام الوالدة المرضع ، اما اذا وقع عكس هذا فهو يصدر عن والدة غير سوية ، حين تأبى ارضاع طفلها مع تهيئة الظروف لذلك .

من هنا نرى ان المالكية تجبر مثل هذه الام الوالدة على ارضاع طفلها اذا كانت زوجة لابيه او معتدة من طلاق رجعي ، بل انها تجبر على ذلك حفاظا على حياة الصغير اذا لم يقبل غير ثديها ولو كانت مطلقة طلاقا بائنا .

نفهم من هذا ان الاسلام قد اهتم بالطفل اهتماما يعلو كل اهتمام ، بل ان مصلحته تتقدم كل مصلحة بما فيها مصلحة الام ، فالرضاعة حق من حقوق الطفل ، وهو اول حق ينتظره حين يستقبل الحياة .

وليست هناك سعادة تعادل سعادة الام وهي تحتضن طفلها ، وتضمه الى صدرها وقلبها بشغف وحنان ، ترضعه حليبا هو ملك له ، وترقبه لحظة لحظة وهي ترى عظمه الطري يكتسي لحما ، وماء الحياة يورد خديه .

فلبن الوالدة المرضع يجعل الطفل يشتد وينمو ويكبر باطراد ملحوظ ، شريطة ان يبتعد عن مصادر العدوى .

وهذا كله يفسره قوله سبحانه في قصة سيدنا موسى حين حرم عليه المراضع واعاده الى امه كي تقر عينها فقال في محكم آياته «واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه، فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين» وقال سبحانه «وحرمنا عليه المراضع» . ولعل في ذلك سر قوة موسى العضلية التي عرف بها في زمنـــه .

فعدم ارضاع الام طفلها مع قدرتها على ذلك اثم تحاسب عليه امام اللـــه سبحانه ، فنحن نشاهد في حياتنا الحاضرة امهات يأبين الارضاع لانه يحول دون زياراتهن وروحاتهن ، بل يدعي البعض منهن ان الرضاعة تشوه شكل صدورهـــن فيلجأن الى الحليب الصناعي منذ لحظة ولادة الطفل .

والرضاعة الصناعية هي ما تلجأ اليه الام العاملة اليوم حتى حين عودتها من عملهـــا .

أما حين تحول امور صحية دون ارضاع الام طفلها ، فانه يتعين على الاب احضار مرضع ترضع الطفل لقوله سبحانه «والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة . وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس الا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده» (البقرة : ٢٣٣).

وفي حالة ارضاع الطفل من مرضع غير امه ، فان اجرة الرضاع تجب على ابيه ، لان رضاعة الطفل هو غذاؤه ، وغذاؤه من نفقته .

اما اذا كان الاب فقيرا عاجزا عن الكسب ، او كان الاب متوفى كانت اجرة الرضاع واجبة على من تجب عليه نفقة الصغير من الاقارب .

ويتسع اهتمام الاسلام بالطفل حتى يشمل مدة الرضاعة ، فقال سبحانه في محكم آياته «والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين» .

فالآيـــة تشير الى معلمين ، اولهما : انها تقول : «والوالدات» ولم يقـــل الامهات ، ويقصد بذلك ان لبن الرضاعة المثالي هو لبن الوالدة الام ، وليس لبن المرضع الام وقديما قالوا : لبن الام ملك للابن .

وتحديد مدة الرضاعة بحولين كاملين يدل على وجوب اعتماد الطفل على نفسه في الغذاء الخارجي ، لان لبن الوالدة في هذه الاثناء يصبح مائعا فاقدا الكثير من عناصره الغذائية .

وهنا يتوجب الفطام الذي يتم بتشاور الوالدين وتراضيهما حفاظا على مصلحة طفلهما ، اذ ان استبداد احدهما بالرأي دون الاخر يضر بمصلحة الطفل نفسا وجسدا ، وهو الامانة في ذمة الوالدين والوطن والراعي .

وبمقدار اهتمام اولئك جميعا بالطفل يكون رقي الوطن ومتانته . فطفل اليوم هو رجل الغد ، وهو درع الوطن .

الله الله في النساء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ص) «الله الله في النساء فانهن عوان في أيديكم اخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله» .

لقد عني الاسلام بالاسرة واهتم بها اعظم الاهتمام ، ووضع لها القواعد التي تكفل لها الامن والسلام والاستقرار انطلاقا من قوله سبحانه «وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا» .

وليس هناك من يجهل الحقوق والواجبات التي نيطت بكلا الزوجين لتمضي بهما الحياة المستقرة التي لا ينفذ من خلالها وهن او خلل ، لانشاء الاسرة التي تمد المجتمع بلبنات صالحة تستند على ما يتوفر فيها من امن وسلام يربط بين افرادها.

وبلغ من اهتمام الاسلام بالاسرة ان وضع لها المبادىء والقواعد التي تكفل لها حياتها الهانئة .

واول هذه القواعد القوامة ، قوامة الرجل على المرأة ، وهي قوامة رئاسة ورعاية واشراف ، وليس قوامة استعباد وتسخير ، وذلك بحكم تكوينه الفطري ، وبحكم كده وعمله في تحصيل الرزق الذي ينفقه على اسرته «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم» .

واوصى الاسلام الرجل ان يكون حسن العشرة ، كريم الخلق ، طيب المعاملة، مع زوجه ، وان يحافظ عليها ، ويحفظ كرامتها ، ولا يتعمد اهانتها ، ولا يقصد ايذاءها ، كما نرى عند كثير من الرجال ، ممن يظنون ان رجولتهم لا تتحقق الا اذا

اهانوا زوجاتهم في كل مجلس ، وكأن الرجولة رفع الصوت والصراخ وافتعال الهيبة، حتى لا يظن فيهم — كما يعتقدون — اختلال ميزان الرجولة . قال صلى الله عليه وسلم «خيركم خيركم لاهله وانا خيركم لاهلي» .

وليس هذا فحسب ، بل ان الاسلام جعل حسن العشرة الزوجية من الايمان فقال رسول الله (ص) : «اكمل المؤمنين ايمانا احسنهم خلقا والطفهم بأهله» .

وهذا يستوجب من الرجل ان يكون رؤوفا بأهله وبأسرته ، فهم امانة في عنقه يسعهم بقلبه ، ويغمرهم بعطفه ، ويشملهم بسعة عقله ورحابة صدره ، يلاعب اولاده ويداعبهم . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «ينبغي للرجل ان يكون في اهله كالصبي — اي في الانس والبشر والسهولة ، فاذا كان في القوم وجد رجلا» .

خلافا لما نشاهده في حياتنا ، فان كثيرا من الرجال لا يرضيهم اي امر ، ونرى الرجل منهم يلبس ثوب عنترة بن شداد حين يغادر منزله ، وثوب ابي زيد الهلالي حين يعود اليه ، واذا سألت عن السبب لا يحير جوابا .

فخدماته على اكمل الوجوه مقدمة اليه ، وشؤونه معني بها كما يجب بل اكثر مما يجب ، فالزوجة قائمة على خدمته وخدمة بيته واولاده نهارا وساهرة عليها ليلا ، علها ترضي هذا الزوج ، ولكن لا سبيل الى ارضائه .

ورضاؤه البرق الخلب الذي تسترقه الزوجة من بين جنبات نفسه ، ولكن غضبه اكثر ، وتقلبه اوسع ، دونما سبب .

بل ان هذا الزوج لا يكلف نفسه مشقة ابداء بعض الرضى عما تفعل زوجته له ، وكأنها انسانة خلقت مسخرة لخدمته دون كلمة ثناء ، تخفف تعبها ، او آلة صماء لا تعي ولا تعقل .

وهذا الزوج نفسه اذا وجد في مجلس من المجالس كان اشد الحاضرين انسا واكثرهم حبورا واعظمهم انطلاقا . وهذا بلا شك بعيد عن قوله (ص) : «ان لجسمك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا» .

فالاسلام قد اعطى المراة حقها كاملا ، واوجب على الرجل اكرامها ، فانه «اذا صلت المراة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، واطاعت زوجها دخلت جنة ربها» .

ومع هذا فان الرجل يرى دخول المراة الجنة في غير هذا كله ، ولكننا لا ندري بم تدخلها في رأيه ، فليته يصرح ، ليته يعرف اذن لهان الامر ، انه هو نفسه لا يعرف.

وعلى الرجل واجب ارشاد زوجته الى الخير ، وتعويدها صالح الاعمال بالرفق والحسنى ، بطريقة لا يشعرها فيها بالاهانة ، فكثيرون يرون في الارشاد الصراخ ، وفي النصح الايذاء .

والرسول صلى الله عليه وسلم قدوة عظيمة في هذا ، ولكن من يقتدي بها ، فقد كان عليه السلام وهو الخاشع المتعبد ، والقائد الحاكم من افكه الناس مع زوجاته واحسنهم خلقا . فقد كان يمزح معهن بما يدخل السرور الى قلوبهن ، ويستمع الى قصصهن . قال عليه السلام «ما اكرمِ النساء الا كريم ، ولا اهانهن الا لئيم» .

وحتى يكون الرجل ابر الناس بزوجه عليه ان يجنبها خطر مخالطة من تشاء ، والاجتماع بمن تشاء ، فهذه المخالطة تجر الى البلايا والمصائب ، وفيها ينشط الشيطان ، ويأخذ في تزيين الفاحشة وفي تجميل الخطيئة ، اذ «لا يخلون رجل بامراة لا تحل له فان الشيطان ثالثهما» .

فهناك من يترك الحبل على الغارب لزوجته ، ويتساهل معها فيما يعرض شرف الاسرة للسوء والاذى ، ويغض بصره عما يحرم الله فيما يحدث في بيته . وهذا التساهل لا يعد من مكارم الاخلاق ، ويخرج صاحبه من زمرة الرجال الذين لهم حرمة في النفوس ،ومنزلة عند الله قال (ص) : «أتعجبون من غيرة سعد — انا والله اغير منه ، والله اغير مني» .

فهذا ينعكس بدوره على افراد الاسرة بناتها قبل اولادها ، ولا يخفى ما في سيرة الام من اثر على حياة بناتها .

ومن المبادىء البدهية التي كفلها الاسلام للزوجة النفقة ، من غير اسراف أو تقتير . يقول رسول الله (ص) «دينار انفقته في سبيل الله ، ودينار انفقتــــه في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار انفقته على اهلك ، اعظمها اجرا الذي انفقته على اهلك» . صدق رسول الله .

اتقوا الله في النساء

قال تعالى «فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ، فا ن اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ان الله كان عليا كبيرا» .

لا شك اننا نعيش في جاهلية اقرب الى جاهليتنا الاولى ، بل انها جاهلية امر وافدح ، حيث اظلمت فيها عقول ، وتحجرت فيها قلوب تنبض بالآثام في عصر انطلاق الانسان في رحاب الكون العظيم المسبح لله في عظمته وجلاله .

فقد كثرت احاديثنا حول موقف الاسلام من المرأة في جميع مراحل حياتها . ومن ادق هذه المراحل تلك التي يقف فيها الرجل من المرأة او الزوج من الزوجة موقف العداء والاستفزاز والتعذيب النفسي .

والزوج هنا ليس كل زوج ، وليست كل زوجة ، ولكنه ذلك الرجل الذي يسوم زوجه سوء العذاب ليس لانها ناشز يرجى تأديبها كما اوجب الشرع ، ولكن لان الرجل بات رهين نزواته النفسية المتغيرة المتبدلة ما بين سأم وملل وكره لا يعرف مصدره .

وكلنا يعرف ان الله سبحانه جعل للرجل تأديب زوجه اذا نشزت واتت ما يكره ويحرم الله . ولكن ان تكون المرأة كما يجب ان تكون من الطاعة ، وان تقوم بواجباتها ازاء زوجها خير قيام ، ويقابلها الرجل بالقسوة والشدة والتعسف ، فهذا ما لا يرضاه الله ولا الرسول ولا الاخلاق ، ولا الضمير .

الذنب الهائل الذي جنته تلك الزوجة انها لا تنجب ، لان الذنب ذنبها – كما يرى مجتمعها – وهم يعتقدون انها مشيئة الله وارادته ، ولا راد لقضائه سبحانه «ويجعل من يشاء عقيما» (الشورى : ٥٠) .

وهذه قضية تنسحب على بعض النساء ممن نفذت فيهن ارادة الله لحكمة لا يعلمها سواه سبحانه .

وحكم الاسلام فيها الاجازة للرجل بالزواج الاخر ان هو شاء ذلك ، على ان يمسك زوجه الاولى بالمعروف او يسرحها بالاحسان . قال تعالى «فامساك بمعروف او تسريح باحسان» .

وما نشاهده في حياتنا الحاضرة أمرّ من أن يوصف ، فمن الرجال من يرى تعذيب هذه الزوجة تعذيبا لا يترك لها فيها بارقة امل في حياة او موت ، ولا يترك لها فرصة دون ان يوجه لها الاهانة ولاذع القول والسب والشتم والزجر والضرب .

واذا سألت الزوجة زوجها عن سبب ذلك اجابها :

اتركيني والحقي بأهلك ، لا اريدك زوجة في بيتي .

اذن طلقها ايها الرجل ، ولكن لا هو مطلقها ولا هو مكرمها ! انه يعمل على تيئيسها وسحق روحها حتى تبرئه وتحله مما هو ملزم به ازاءها من مؤخر والتزامات ، اشهد الله عليها يوم بنى بها .

عن عائشة رضي الله عنها «كان الناس والرجل يطلق امرأته ما شاء ان يطلقها، وهي امرأته اذا ارتجعها وهي في العدة ، وان طلقها مائة مرة حتى قال رجل لامرأته : والله لا اطلقك فتبيني مني ولا آويك ابدا .

قالت : كيف ؟ قال : اطلقك فكلما همت عدتك ان تنقضي راجعتك .

فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها فسكتت عائشة حتى جاء النبي صلى الله عليه سلم فأخبرته .

فسكت حتى نزل القرآن «الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان».
قالت عائشة فاستأنف الناس الطلاق مستقبلا ، من كان طلق ومن لم يكن طـــلق» .

وليس حل الرجل من التزاماته ازاء المرأة هو السبب الوحيد لتعذيبها ، بل انه قد يلجئها الى ان تفتدي حريتها بمال قد يكون اكثر مما مهرها به .

ولكن ان يصل الرجل الى اقسى انواع العذاب ، وهو هجر المرأة في الفراش بلا سبب او مبرر فهذا هو الكفر عينه بما شرع الله سبحانه .

فهو بذلك يدفع امرأته الى طريق لا يرضاه ، والى تفكير يخالف هواه . انه يلجئها الى تنكب الطريق الذي رسمه الله ورسوله حيث قال عليه السلام «أيما امرأة باتت هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح» . وقال (ص) : «لا تمنعه نفسها وان كانت على ظهر قتب» .

فما حكم الشرع اذا كان الرجل هو الفاعل هذا كله ؟ وهل يتحتم على المرأة والحالة هذه ان تفرض نفسها على الزوج وهو على ما هو عليه من نفسية غريبـــة ومزاج سقيم ! .

حتى الكره الذي يحول دون مباشرة الرجل زوجه فقد حكم فيه الاسلام فقال سبحانه «فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا» . (النساء ١٩) . .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للرجل الذي ينوي طلاق امرأتـــه لانه لا يحبها : او كل البيوت يبنى على الحب ، فاين الرعاية والتذمم ؟

فجر الخلق ، وتمردت فئة القت كتاب الله خلف ظهرها وماتت الرعاية والتذمم في قلوبهـــا .

وقد بين الشرع الامور التي تعتبر فيها المرأة ناشزا تستحق بعدها هجـــر زوجها لها في الفراش فقال (ص) : «ألا واستوصوا بالنساء خيرا فانهن عوان

عندكم (اي اسيرات) ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك الا ان يأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح ، فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . الا ان لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا . فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن في بيوتكم من تكرهون ، الا وحقهن عليكم ان تحسنوا اليهن في كسوتهن وطعامهن» .

ولا يكتفي مثل هذا الرجل بهذا الهجر الذي يسبب للزوجة كل الاذى والعذاب والمعاناة والقهر ، ولكنه يقوم بالضرب المبرح الذي نهى عنه الاسلام ، وهو بهذا يطبق شرع الله وسنة رسول الله تطبيقا مزاجيا يصدر عن نفسية غريبة ، ونية فاسدة ، وقلب متحجر .

فالضرب الذي تذكره الآية الكريمة والاحاديث الشريفة هو الضرب غير المبرح. قال رسول الله (ص) : «اضربوا النساء اذا عصينكم في معروف ضربا غير مبرح» .

قال لعطاء : قلت لابن عباس ما الضرب غير المبرح ؟ قال : بالسواك ونحوه .

وافسر هذا بمفهوم عصرنا في نطاق الشرع لنرى الى اي حد يتجاهل كثيرون من الرجال مبادىء شرعهم . فانه لا يحل للرجل ان يضرب زوجه بعصا او يلطمها على وجهها ، وهذا بطبيعة الامر لا ينسحب على جميع النساء .

كما أن الرجل الكامل الرجولة لا يرضى لنفسه هذا المسلك ، اقتداء برسول الهدى (ص) فانه لم يمد يده على امراة له قط ، بل انه لم يشتم امراة له قط ، وانه لم يعرف ذلك عن الصحابة قط .

ومد الانسان يده على امرأته — وان كان له هذا حقا — في بعض الاحوال الشاذة النادرة لا يقدم عليه الا لئيم . قال رسول الله : «ما اكرم اهله الا كريم ولا اهانهن الا لئيم» .

ومما يلاحظ ان المرأة لها حق الطلب الى القاضي في تأديب زوجها اذا كان يسيء معاملتها ، ولا يعاملها بالمعروف ، ويعظه القاضي . فان لم يجد الوعظ امر لها

بالنفقة ، ولا يأمر له بالطاعة وقتا مناسبا لتأديبه ، فان لم يجد ذلك كله كان له عقابه بالعصا ، وذلك كله على مذهب مالك ، منعا لشطط بعض الرجال .

اما نشوز الرجل فقد قال فيه سبحانه «وان امرأة خافت من بعلها نشوزا او اعراضا فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا والصلح خير واحضرت الانفس الشح ، وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعلمون خبيرا» (النساء : ١٢٨) .

والنشوز هنا هو التباعد ، والاعراض هو الا يكلمها الرجل ولا يأنس بها ، وهو يعني ان الامر قد بلغ حدا بالغا بينهما ، فاما الصلح واما تطبيق قوله سبحانه «وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعا حكيما» .

فالله سبحانه كفيل بعباده رحيم بهم ، هو خالقنا وهو مولانا ، انه نعم المولى ونعم النصير .

المرأة كالضلع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان المراة كالضلع ان ذهبت تقيمهـا كسرتها ، وان تركتها استمتعت بها» .

الحديث الشريف تقدمة الى حديثي ، وهو في مضمونه تأييد رسول الله (ص) للمراة ، وان بدا في ظاهره خلاف ذلك .

وهو يصور للرجل واقع الحياة الزوجية كما هو بدون تزيين او زخرفة ، بعيدا عن الاحلام والاوهام التي يصورها خيال الخياليين منهم .

وفي هذا يقف الحديث الرجل على ان في هذه الحياة ما يسوء وما يسر ، ويصارحه بالحقيقة كاملة ، ليوطن نفسه عليها .

وعليه من هنا ان يمسك المراة على ما هي عليه دون ان يطمع في تقويمها بالشدة التي قد تكسرها «ان ذهبت تقيمها كسرتها» . وبهذا وحده يضمن للحياة الزوجيـة الهناء والاستقرار .

وبذلك كان توطين النفس على هذا العوج هو سبب استمتاع الرجل وهناءته في حياته باغضائه عن بعض معايب المراة التي لا بد ان يكون الى جانبها كثير من المحاسن . يقول رسول الله (ص) : «لا يفرك مؤمن مؤمنة ، ان كره منها خلق رضي منها آخر» .

ومع ذلك فان كثيرين يتجاهلون هذا المعنى ، وينظرون الى المراة نظرة فيها الكثير من العنت والتسلط ، لانهم اعتقدوا خطأ انها ضلع اعوج ينبغي تقويمه بالشدة،

وهم في هذا يعتمدون شتى الاساليب ، وهي في ظاهرها رأفة ورحمة ، وفي باطنها قهر وقسـوة .

وليس هناك من يجهل ان الذكر والانثى هما انسانان في ميزان الحياة . لها ما له من الحقوق وعليها ما عليه من الواجبات ، فواحدهما يكمل الاخر دون ان يبغي واحدهما او يجور .

هكذا حتى تكتمل الدورة الحياتية التي شاءها الله سبحانه .

ولكن يشاء سوء طالع بعض الرجال ان يصابوا بالغرور القاتل ، عندما يرى الواحد منهم ان شخصيته في المنزل لا تكتمل الا اذا اعتد بنفسه الى حد الشذوذ، يميزه جبين معقد ، حين يدخل بيته ، وفم يقذف بأوامر لا ترد .

وهو يأنف من كل شيء حتى مما هو فرض لازم عليه ، وهو مداعبة اطفاله . اما حين يكون خارج منزله فهو نعم الرجل الاليف الودود المجامل المداعب .

يا لله ! أين هؤلاء من سيد الخلق رسول الله (ص) ، الرجل الحق والشخصية الكاملة في سلامة طبع ورقة معاملة ، وحسن عشرة ، وسماحة ومودة ولين جانب وخفض جناح .

سئلت عائشة رضي الله عنها : ماذا كان رسول الله يفعل في بيته ؟ قالت : يكون في مهنة اهله . اي خدمتهم . وكان يقول «خدمتك زوجتك صدقة» . و «خيركم خيركم لاهله وانا خيركم لاهلي» .

وكان (ص) يغمر بيته بالبشاشة والايناس والرفق ، ويقول «ان الله عز وجل ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق (الحمق) . واذا احب الله عبدا اعطاه الرفق . وما من اهل بيت يحرمون الرفق الا حرموا الخير كله» .

وكأن كل ذلك الرفق والرأفة والرحمة والبشاشة يذهب حين يدخل بعضهم الى بيته ، ويستحيل بعدها الى الحاكم بأمره والآمر الناهي .

عليه ان يطلب وعلى اهل بيته ان يطيعوا الطاعة العمياء التي تقول بلسان حال الرجل : أنا الرجل ، وحين يذكر الانا هذه ، فذلك يعني كل شيء . ان تتوارى المراة في ثناياه ، ان تتلاشى ولا يبقى لها اثر . هكذا يريد بعضهم ممن اصيبوا بوهن في ضمائرهم فتسلطوا وتجبروا بذلك الضلع الذي يزيدونه اعوجاجا بتعنتهم . «خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين» (النمل : ١٤) .

والحياة المعاشة تجسد ذلك العنت والغرور في قصص لا اقصدها هنا لذاتها ، وانما لما ترمي اليه .

قالوا عجبا لها انها امراة فريدة من نوعها باخلاصها ومحبتها ، فهي تخطب لزوجها امراة لتنجب له ما حرمه من زوجه الحاضرة .

ولن ابحث في قصة الزواج ، ولكن في دور المراة هذه . فظاهر الامر يقول : هي امراة محبة لزوجها حبا غير موجود الا في الاساطير .

اما واقع الحال فهو ما يمارسه معها زوجها من انواع المراوغة والقهر والعنت ليقهرها ويرغمها على ان تقوم بدور الخاطبة . ويصيب القهر اعمق اعماقها وتصنع له ما اراد . ليقال في الظاهر انها اسطورة في الاخلاص . ولكنه عنت الرجل .

حكاية اخرى تقول : امراة تجهض في شهور حملها الاولى ويقف زوجها الى جانبها ، والجميع يقول انه مثال الرحمة والعطف والمحبة لزوجته . او هذا هو الظاهر . اما صادق الحال فهو يقول : هذا الرجل يبيح لنفسه السهر خارج بيته حتى الثانية والثالثة صباحا وحين تعاتبه زوجته على ذلك يأخذ في اهانتها وشتمها وركلها بما وسعه جهده حتى تجهض .

هكذا ! منطق سليم ، اضع فيه الرجل امام ضميره واسأله : ماذا انت صانع لو سهرت زوجتك بدون اذنك خارج بيتها حتى العاشرة ، ولن اقول الثانية او الثـــالثة .

الجواب معروف : لا شك ستعقد لها اجتماعا عاجلا طارئا تستدعي اليه اهلها ، وتقف امامهم موقف الخطيب المفوه تسفه امرها وشأنها .

اذن كيف يزن الرجل المرأة في ميزان لا يزن هو نفسه فيه نفسه . «وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه» .

وماذا بعد عن ذاك الذي يحرم زوجته ابسط حقوقها ـــ حق المأكل اليسير الذي تطلب فيه الزوجة الخبز ـــ يا لله ، الشيطان اعمى قلبه فحرمها من هذا المطلب «قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا» (مريم : ٧٥) . .

وينتهي الامر بترك الزوجة بيتها واطفالها الى بيت اهلها مطالبة بالطلاق .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول : «ما انفق الرجل على اهله فهو صدقة ، وان الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها الى فم امرأته» . و «ان من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الا الهم في طلب المعيشة» . وقال عليه السلام : «اذا خرج العبد في حاجة اهله كتب الله تعالى له بكل خطوة درجة فاذا فرغ من حاجتهم غفر الله له» .

وصدق رسول الله

النساء شقائق الرجال

قال تعالى «يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكـم رقيبـا» .

لقد جاء الاسلام بالحق ، ومن الحق ان تكون الروابط بين الرجل والمرأة روابط تأليف وتحبيب لا اغلال واسار واذلال .

فعلى هدي من الروابط تكون الاسرة او اللبنـة الاولى في الصرح الاجتماعي ، فاذا هي صلحت وحسبت للمشاعر والاحاسيس حسابها عند تقرير العلاقة بين الرجل والمرأة كان ذلك ايذانا بقدرة هذا المجتمع على الصعود في معراج التقدم ، وهو واثق من سلامة وحداته الصغيرة التي هي الاساس في تحقيق ما يصبو اليه من رفعة .

واكد القرآن الكريم في كثير من مواقفه ان الرجل والمرأة خلقا من نفس واحدة ، وهذا يعني ان تآلفهما قديم ، وهو تآلف روحي لا تآلف جسدي فحسب ينقضي بانقضاء اوطار الجسد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «النساء شقائق الرجال» .

وبتزاوج النفسين الرجل والمرأة تتكون الاسرة السليمة التي هي امانة في ذمة الرجل ، وعليه ان يتقي الله فيها وفي مجتمعه ! .

والتقوى هنا هي العمل والنضال الذي يفيء بخيراته على الجميع ، وهي كذلك مخافة الله تعالى التي تضعه دائما امام مسؤولياته ، وهذه تضعه ابدا في مكـان الصدارة التي يستحقها الرجل الحق .

والقرآن حين يخاطب الاثنين الخطاب الواحد ، فذلك يعني ان لكليهما من الحقوق والواجبات ما يجعلهما في موضع التكامـل ، دون ان يبغي احدهما على الآخـر .

والبغي في ميزان الحياة يصدر عن الجانب القوي ، حين يغشى الظلام قلبه ، ويغلق جوارحه ، ويبتعد به عن الطريق السوي الذي يكفل الامن والسلام .

فكيف اذا صدر البغي عن قلب الرجل المختص بالقوامة ، وهذه تميزها اعطاء الرجل المراة حقوقها المادية والمعنوية والنفسية كاملة غير منقوصة .

وهي حقوق تبنى على احترامها وتثبيت كيانها وعدم اهانتها من خلال ضبـط نفسه وكبح جماح غضبه الذي يثور في كثير من الاحيان لاتفه الامور واوهى الاسباب لتوهمه ان من حقه ان يثور ويغضب ويوجه الى الزوجة ما تكره ، لانه فرد الله المختار ، كما يدعي المدعون منهم .

ولبعض الرجال مواقف يجورون فيها ويبغون ، ونحن نسمع الواحد منهم يفاخر ويباهي امام زوجه بعلاقات قلبه المراهق في حاضره .

عجبا للرجل ، وهو ينقض وينقض ميزان الرجولة ، وماذا يكون موقفه لو فجرت المراة فجوره هذا واخذت تباهي بما يباهي ، وتفاخر بما يفاخر ؟

وتصوروا معي رجلا تعلن زوجه امامه ما يعلنه !!

عندها يحيل دنياها الى جحيم ، ويرد حياتها قهرا ، بما يصبه عليها من نقمته وفجوره وثورته وتمرده باتيانه ما لا ترضى عنه .

وغرضه في هذا ان تستسلم الزوجة ، وما اضعفها حين تستسلم فهي تعلـم مسبقا ان عليها الا تعترض على ما تسمع وترى ، والا فان ذلك كفيل بان يفجر عتوه وجبروتـه .

وليس لها الا ان تردد في اعماقها ، بلسان قلبها ، حسبي الله ، لقد ذهب الحياء ، فان من لا يستحي من نفسه لا يستحي من الله .

عن ابن مسعود قال رسول الله (ص) : «استحيوا من الله حق الحياء ، قلنا : انا نستحي من الله يا رسول الله — والحمد لله — قال ليس ذلك الاستحياء من الله. حق الحياء ان تحفظ الراس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى . ومن اراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، وآثر الآخرة على الاولى . فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» .

فأين حياء ذلك الرجل؟

نفهم انه قد يباح له ان يفاخر ببطولاته العاطفية وجولات مراهقته النسائية قبل ان يتزوج ، ويصبح في عداد الرجال ، ولكن ان يـ فعل هذا وله من الاولاد والبنات ما يردعه ويقرعه فذلك ما يعيبه عليه الشرف والضمير والرجولة والتقوى .

وان جر هذا الى شيء فهو يجر الى حرمان الرجل زوجه حقها المشروع .

وهذا الحق هو المؤانسة والامتاع ، الذي يحرمه الزوجة ، لانه يفرغ طاقاته كلها في جولاته القلبية الخيالية خارج بيته ، حتى اذا دخل هذا البيت كان مجرد جسد بلا روح ، ويكتفي منه بما يهيأ له من طعام او شراب ، وبعدها ينطلق في الحياة .

وقد كره الاسلام من الرجل هذا الظلم في حق هو من الزم حقوق المراة ، والاحجام عنه اعنات لها وايهان لوشائج المحبة ، حتى وان كان هذا الاحجام لصلاة او صيام او عبادة .

اشتكت زوجة الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت : يا امير المؤمنين ان زوجي يصوم النهار ، ويقوم الليل وانا اكره ان اشكوه وهو يعمل بطاعة الله عز وجل . فقال لها : نعم الزوج زوجك .

فجعلت تكرر عليه القول ، ويكرر عليها الجواب . فقال له كعب الاسدي : يا امير المؤمنين ، هذه المراة تشكو زوجها في مباعدته اياها عن فراشه .

فقال عمر : كما فهمت فاقض بينهما ، فلما جيء بزوجها قالت المراة للقاضي :

يا أيهـــا القـــاضي الحكيـــم رشــــده

الهى خليلي عن فراشي مسجـــده

زهـــده في مضجعــــــي تعبـــــده

فـــاقض القضـــا كعـــب ولا تـــرده

نهـــــاره وليلـــــــه مـــا يرقـــــده

فلست في امـــر النســـاء احمـــده

فقـــال زوجهـــا :

زهدني في فراشهـــا وفي الحجـــل

انني امـــرؤ أذهلني ما قـــد نـــزل

في سورة النحل وفي السبع الطـــول

وفي كتـــاب اللـــه تخويـــف جلـــل

فقـــال كعـــب :

ان لهـــا عليـــك حقـــــا يا رجـــل

نصيبهـــــا اربـــع لمـــن عقـــــل

فأعطها ذاك ودع عنك العلل

فمتى يعقل المؤمنون ، وفضل الرجال على النساء ليس في كلمة الرجولة ، ولكنه فضل يعود الى اعتبارات خلقية لا يد للرجال والنساء فيها .

فالفضل هو في زيادة القوة والقدرة والخبرة بوسائل الحياة ، والصبر على أعبائها ، ومواجهة الصراع فيها ، لانهم مخلوقون لذلك ، مزودون بالاستعداد له ، ومنوط بهم من التكاليف والواجبات كفاء ما اعطاهم من القوة والطاقة .

وهذا الفضل من الله يجب أن يقابل بالرضا والتسليم ، وليس كل رجل افضل من المراة ، فقد تكون امراة خيرا من الف رجل على ضعف بنيتها وقوتها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذي يملك نفســـه عند الغضـــب» .   صدق رسول الله .

الاسلام والطفولة

نسمع بين الفينة والاخرى عن اعياد جديدة ، وأيام بل اعوام يحتفل بها العالم ، ويتخذها اصحابها شعارات يدلون بها عن مدى تقدمهم ، او هكذا يخيل اليهم ، وهم في هذا معتقدون انهم اسبق البشر الى ما يظنونه اكتشافا من الاكتشافات الحديثة التي تعود عليهم بصفة التحررية والتقدمية .

ومن هذه الاعياد بل الاعوام عام الطفل الدولي ، الذي بداه الغرب فكرة ومنهاجا ، فاحتذى عالمنا العربي والاسلامي ، حتى بتنا نظن ان الطفل بحد ذاتــه بل الاهتمام بالطفل امر جديد .

وهذا يحمل في ثناياه معلما خطيرا مؤداه أننا غرباء عن الاســلام ، بل ان الاسلام غريب بيننا .

والغــريب في ذلك أن الاهتمام بالطفولة جوهر في مبادىء الدين الحنيف . فقد حمل كتابنا العزيز وسنة رســول الله صلى الله عليه وسلم مظاهر العناية في جميع مراحل حياة الطفل منذ يكون جنينا في بطن أمه الى أن يضحى وليدا يتدرج في مدارج النمو حتى يكتمل ويجتاز مرحلته الطفولية ، مســتقبلا فجر الصبا واشراقة الفتوة . عندما يكون قد تهيأ لاستقبال الشباب والحياة انســانا قويا نفسا وعقلا وجســدا .

وقد بلغ من حرص الاسلام على الطفل أن نبه الى حسن اختيار اسمه ، حيث لايملك الطفل من الامر شيئا قال صلى الله عليه وسلم : « من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه » .

والطفل من أعظم الامانات التي كلف بها الوالدان ، وحقه عليهما ملزم لهما ببذل كل ما من شأنه أن يجعل منه انسانا قويا في روحه وجســده .

فقد مضى الاسلام مع الوالدين يرسم لهما ويوضح ادق خصوصيات الطفل بقوله تعالى «حملته امه وهنا على وهن وفصاله في عامين» . وليس هذا فحسب وانما يحدد مدة رضاعة الطفل تحديدا يحمل الحكمة البناءة لهذا الطفل فقال سبحانه «حملته امه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا» .

ففصال الطفل او فطامه مرهون باتفاق والديه ، حتى يتم الامر على وجه المصلحة لطفلهما حيث لا ينفذ اليها رغبة احدهما او هواه لقوله سبحانه «فان ارادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما» .

وفي التراضي تشاور وتدارس لمصلحة الطفل قبل اية مصلحة لما في رضاعه من مناعة وصيانة وقوة له .

وتشدد الاسلام اكثر من ذلك ، اذ قد يفكر الوالدان في فطام طفلهما قبل انتهاء مدة الرضاعة التي حددها الله سبحانه لحكمة مشروعة ، «والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين» . عند ذلك يتوجب ايجاد مرضع ترضع الطفل فقال سبحانه «وان تعاسرتم فسترضع له اخرى» .

بمثل هذا التحرج والتشدد والرأفة مضى الاسلام في تربية الطفل ، ملزما الابوين بحق انشائه النشأة القويمة حيث انه «ما من مولود الا يولد على الفطرة ، وابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه» .

واذ يختار هذا الطفل هذه المرحلة الاولى من حياته فان على والديه ادبا آخر من الرعاية والعناية والتأديب والتقويم ، متمثلا في الصلاة التي تنهي عن الفحشاء والمنكر فقال (ص) : «مروهم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع» .

وبالصلاة تستقيم حياة الانسان منذ طفولته حتى كهولته ، وتحيطه بسياج لا ينفذ منه وسوسة .

ويتبع هذا تأديب آخر ، وتعليم يبني عقله ونفسه وجسده ، ويجعل منه الانسان القوي الذي يستقبل الحياة برباطة جيش لا يهن مع تقلباتها .

روى الحافظ ابو نعيم ان النبي (ص) قال لمولاه ابي رافع «ما مالك يا ابا رافع ؟ قال ابو رافع : اربعون الفا وهي لله عز وجل .

قال النبي : لا ! اعط بعضا وامسك بعضا واصلح الى ولدك .

قال ابو رافع : او لهم علينا يا رسول الله حق كما لنا عليهم ؟

قال : نعم ! حق الولد على الوالد ان يعلمه كتاب الله عز وجل والرمي والسباحة وان يورثه طيبا» .

وقال عليه الصلاة والسلام «ما نحل والد ولده من نحله افضل من ادب حسن» .

والى جانب ذلك فان الاسلام لا يغفل التنبيه الى اسلوب هذا التأديب ، وتلك التربية التي يلزم بها الوالدان ازاء طفلهما ، وهي تربية متدرجة بتدرج الحياة فقوله (ص) «ادبوا اولادكم بغير ادبكم ، فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم» .

من هنا فان تأديب الطفل يمر في ثلاث مراحل :

اولها التربية الاولى التي لا يستطيع الطفل ان يقوم فيها بحاجاته .

وقوام هذه التربية ان ينشأ الطفل بين ابويه يستمد منهما الحنان والعطف والرعاية في المأكل والمشرب والملبس ، وهذا من شأنه ان ينمي في الطفل ، شتى العواطف ، ومختلف الاحاسيس التي تعمل فيه ما يعمل الماء في البذرة في الارض .

وثانيها : ولاية التربية والتهذيب ، وهذه تكون افعل ما تكون في ظل الحماية القوية والرعاية المتينة التي تحتاج الى شخصية متماسكة في الوالدين ، وهذه تمضي بالطفل في طريق تعبده له سلطات الاب العطوف وحنان الام . وبمقدار تكاتف الوالدين على حماية الطفل ، واشعاره بأنه محور حياتهما يكون استواء شخصيته ونجاحه ، ويحميه من العقد والانحرافات التي تطيح بحياته .

اما ثالث هذه المراحل فهي الولاية على المال ، وتكون في حالة اصابة الطفل بعاهة تحول دون التصرف السليم بماله .

واذا راعى الوالدان أصول هذا التأديب فان ذلك يعمل على تنشئة أطفال برآء من كل نقص في اجسادهم ونفوسهم . ومرد هذا كما نعرف هما الوالدان . الاب بشخصيته وسعيه على رزق طفله ، والام بحنانها وبذلها وتفانيها ، واستقرارها الى جانب طفلها ما وسعها ذلك ، فانه يشعره بأهميته وكيانه بما يدعم ثقته بنفسه وقدراته وطاقاته التي تحوطها المودة والرعاية والرحمة .

وقوله صلى الله عليه وسلم «ريح الولد من ريح الجنة» خير مؤكد على حكمة التربية الاسلامية ، هذا اذا تمكن الوالدان من تأديـــة وسالتهما على اكمل الوجوه، حين يتخذون من رحمة رسول الهدى رحمة لهم . فقد «رأى الاقرع بن حابس النبي (ص) وهو يقبل ولده الحسن فقال : ان لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منـــهم فقال : «من لا يرحم لا يرحم» .

وقد اوجز الرسول صلى الله عليه وسلم في ابلغ عبارة مراحل تأديـــب الطفل فقال : «الغلام يعق عنه يوم السابع ، ويسمى ويماط عنه الاذى . فاذا بلغ ســـت سنين ادب ، فاذا بلغ سبع سنين عزل فراشه ، فاذا بلغ ثلاث عشرة ضرب على الصلاة والصوم ، فاذا بلغ ست عشرة زوجه ابوه ، ثم اخذ بيده وقال: قد ادبتك وعلمتك وانكحتك واعوذ بالله من فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة» .

وبعد فماذا بقي للغرب يدعي السبق فيه . فنحن بدأنا ، ولا بد أن نعود ، حين نعود الى كتابنا الحفيـــظ ، «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون» .

صدق الله العظيـــم

وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة

شاءت شريعة اللطيف الخبير أن تكون الزوجية سـكينة ومـودة ورحمة .
والحق الاصلي فيها حل العشرة بين الزوجين وحل ما يقتضيه الطبع الانساني مما هو محرم الا بالزواج لقوله تعالى « والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين » .

ويتبع هذا الحق الاصلي حقان آخران مشتركان بينهما هما حرمة المصـاهرة والتوارث بين الزوجين . فان العشرة لما حلت بين الزوجين ربطت بينهما لحمـة تشبه لحمة النسب أو أقوى ، ثم ربطت بين أسرتيهما برباط المصاهرة ، فصـارتا كأنهما اسرة واحدة . ولذلك ثبتت بينهما حرمة المصاهرة .

هذا هو الاصل ، وكل ماعداه فهو اما باطل أو شاذ . وكلا الامرين بعيد عن روح الدين وجوهره .

ما تقدم تقدمة للحديث هنا ، وهو أمر سبق أن تحدثنا فيه كثيرا ، لانه يتخذ في حياتنا صورا كثيرة وان كان مضمونه واحدا .

فالحقيقة التي نحياها تقول خلق الله سبحانه الزوجين الذكر والانثى ، وهما في مقياس الخليقة انسانان ، ذكر وانثى .

وحين يشاء الله أن يتحد الزوجان فهذا يعنى أن تجمعهما السكينة والعطف والرحمة والالفة والمودة لا العنت والشطط والجور .

كائنان اثنان ، الذكر والانثى ومنهما تكون الحياة .. في الابناء والاحفاد ، حتي تعمر الحياة وتمضي ضمن سنة الله وتدبيره دون خلل .

ولهذه الحياة مسيرها ورئيسها .. والمسير هو الرجل ، لانه الاقوى في عرف الخليقة والحياة .. وهذا يدفع بعضهم الى استغلال هـذه الرياسـة والقوة فيما يحرم الله ويغضبه .

وقد يقول قائل : وهل الرجل هو الظالم دائما . ونقول قد تكون المراة هي الظالمة في بعض الاحيان ، ولكن المقياس الحقيقي هو أن الرجل هو الاقوى ، وهو المفضل على المراة درجة « وللرجال عليهن درجة » . والشيء الطبيعي في صدور الظلم هو انه من الجانب الاقوى دائما .

فمهما ظلمت المراة فلا بد ان ينهار ظلمها ويتهاوى أمام قوة الرجل النفسية والعقلية والخلقية . ثم ان امورا كثيرة تحول دون تمادي المراة في : اولها تكوينها الطبيعي الذي يؤهلها للامومة . اي انها مجموعة المشاعر والعواطف التي تكون الامومة . وهذه تتنافى تماما مع اية قسوة قد تصدر عن المراة عرضا .

من هذا المفهوم نؤكد أن الرجل يبقى هو الرجل والمراة تبقى هي المراة . طرفان يكمل واحدهما الآخر دون بغي أو جور أو انتقاص . وفيما عدا هذا فهو اخلال بسنة الله في خلقه .

عجبا لهذه الحياة حين يختل فيها مقياس من مقاييسها . أذكر هنا صورا أو بعض صور لصنيع الذي اعطي الرياسة والدرجة .

خرجت زوجة من بيتها لزيارة أهلها وحين عادت الى البيت .. الى بيتها منعت من الدخول اليه ، لان زوجها قد اغلقه بالمفتاح وحين رجته الدخول ، بل حين توسلت اليه أن تدخل قال لها لا معرفة بيننا ولا صلة ، عودي من حيث أتيت .. وعادت

واذكر قصة أخرى قبل أن أعلق على ماذكرت ... فقد حدث سوء تفاهم كعادة الازواج بين ذينك الزوجين فكانت الخاتمة أن غضبت الزوجة وتركت بيتها الى دار أهلها . فما كان من الزوج الا ان اقفل الباب من الخارج باحكام ليمنع الزوجة من العودة الى بيتها في حالة غيابه .

هكذا .. يا لله لسنا على اي حال في عالم عاقل ، كل ما حولنا يوحي بالخلل. انه خلل ما .. ولكن اسأل الرجل وكذلك المراة سؤالا واحدا . لمن تكون الدار التي يهيئها الرجل حين يبني بزوجه ؟ اليست الدار هي دار الزوجة ما دامت على ذمة زوجها ؟ اذن لماذا تخرج هي من دارها حين يحدث اي صدام او اي سوء تفاهم ؟

الشرع الحكيم يقول الدار للزوجة وعليها الا تتركها حتى لو طردها منهـا زوجهـا ..

أسهل على الرجل ان يترك داره الى حيث يشاء ، ثم .. ثم يعود اليها حين يثوب الى رشده او يثوب اليه رشده ، ليدرك ان الزوجة تبقى في انتظاره مهمـا حدث في حياتهما ، الى ان يعقل هذا او يبقى في الدار مع زوجه ، وهذا بلا شك يعجل بانهاء الخصام وعودة المياه الى مجاريها .

اما ان تترك الزوجة بيتها كلما عن لهما ان يتخاصما فهو حال طويل ، لان الحياة معهما مليئة بمثل تلك المشاحنات التي تزيد بلا شك من توثيـق الروابط في المستقبل، هذا اذا احسنت الزوجة التصرف وحكمت عقلها فيما يجب عليها ان تصنع ؟

بقي ان نعرف امرا هو ان فعل هذا الرجل او ذاك ان هو الا رد فعل يقيني لما هو في يقينه واعتقاده في ان الدار هي دار الزوجة ما دامت في عصمته والا لما احكم اغلاقها بوسائل متنوعة خوفا من هذه الزوجة .

فأما ان يعترف الرجل بينه وبين نفسه بهذه الاحقية للزوجة ، والا فان الامر بيده في تسريحها حين لا يستطيع اكراه نفسه على العيش معها . ولكن بالمعروف . «فأمسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف» .

ولكن ما يشغل الفكر في مثل هذه الحالات هو : كيف يكون شعور الرجل حين يغضب زوجه ويرغمها على هجر دارها واولادها ؟

لا اعتقده يهنأ في منامه لانه لم يعدل فيأمن فينم . ولن يقال فيه بحال ما قيـل في عمر بن الخطاب «عدل فأمن فنام» .

ومهما طال هذا الهجر أليست النتيجـة أنه الخاسر حين يخسر اولاده الامن والحنان والمحبـة ؟ .

اليس هو الذي سيأخذ زمام المبادرة مرات ومرات بارسال الوفود الى زوجه لتعـــود ؟

اليس هو الرابح لو اعادها والخاسر حين يهدم حياة اولاده وحياته ويدمـــر امنه وهناءه ؟

بل انه ليس من شك في ان ما يقدم عليه مثل هؤلاء الرجال هو توهمهم في ان الناس جميعهم يحيون سعادة يفتقدها هو ..

هكذا وهو يجعل بل يتجاهل ان حيطان الناس جميعا تخفي وراءها مشاكـــل امر وادهى مما يعرض له ، ولو بحث في الامر وتقصي لحمدالله سبحانه الف مرة لان حياته مع ما فيها أيســـر مما يظهر الناس له ، وهذا يعطيه القناعة الشاملة التي يفتقر معظم الناس اليها .

عند ذلك تساعده قناعته تلك في القيام برياسته قيام الشفيق الرحيـــم الودود لاهل بيته واولاده ، فيسلك معهم بمخافة الله ، ويعاملهم بتقوى الله متسلحا بالصبر. «وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة» .

وصدق الله العظيـــم

الرجال قوامون على النساء

قال تعالى «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من اموالهم» . (النساء : ٣٤) .

حديثي هنا حول هذه الآية الكريمة ، حول مفهومها ومضمونها من الزاوية الانسانية المرتبطة بالمجتمع ، بالحياة ، بالنساء اللواتي اوصى الله بهن في كتابه العزيز في سورة كاملة هي سورة النساء ، ويؤكد ذلك السنة النبوية المطهرة .

والآية الكريمة في اطار واقعنا تتحدث عن الرجل الرجل ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة في جوهرها لا في ظاهرها . فالآية تقول الرجال قوامون على النساء وليس الذكور قوامين على النساء . فكل رجل ذكر ، وليس كل ذكر رجلا . فالذكر قد يكون طفلا وصبيا ويافعا واحمق وغبيا ومجنونا ، وهذا كله لا يعني الرجولة في شيء . لان القوامة على النساء لا تكون في واحد مما ذكرت .

الرجولة اذن شيء آخر ، الرجولة التي حددتها الآية ، وربطتها بالقوامة هي الخلق ، التقوى ، الشهامة ، المروءة ، النخوة ، الصفح ، النضج العقلي والعاطفي ، الحزم والعزم ، الرزانة، الجرأة ، القوة النفسية التي لا تستسلم للنزوات ، القوة النفسية التي لا تتخاذل في حق من حقوق الله ، ولا تتنازل عن حق من حقوق النفس في عزتها وكرامتها .

هذا كله يكون رجل الآية الكريمة حتى يكون بحق قواما على المرأة ، قائما على شؤونها في حدود رجولته ، دون ان يخل بها شيء . فالرجولة لا وسط فيها ،

فلا نقول هذا رجل ، وهذا شبه رجل ، فاما الرجل والرجولة ، او لا رجل ولا رجولة على الاطلاق .

وهذا كله يتحقق عملا ، ويتأكد فعلا ، ويتجسد سلوكا ، حين يولى الرجل امر الانثى ، سواء كانت بنتا او زوجة او اما .

ولن اتحدث هنا عن الانثى بنتا او اما ، فان الرجل ازاء هاتين يجاهد ما امكن ، حتى يكون عند مستوى الرجولة في معاملتها ، والاحسان اليهما شرعا وخيرا وصلة رحم . استمرارا لمشاعر اصيلة دفينة في عروقه ازاءهما ، فهما تجسدان عملية الاستمرارية في حياة ماضية مرتبطة بالمستقبل ودافعة اليه ، بكل ما في هذه العملية من روابط صنعتها اول عاطفة يحسها الرجل ، عاطفة الرحمة والحنان والشفقة .

أما حين يصل الرجل الى مرحلة الرجل الزوج .. فانه يصبح شيئا آخر او انسانا آخر .. هنا .. هنا يختل شيء ما في تلك الرجولة ، ولا بد ان يحدث مثل هذا الخلل — كما يعتقد الرجل ومن حوله — فالزوجة تعني امرا آخر ، انها تعني المنافسة الغريبة التي تطفلت على حياة اسرته — كما يوهمونه — فعليها من هذا المنطلق ان تكون الضيفة التي لا حق لها في المناقشة ، فان لها حقوق الضيفة ، ولكن عليها واجبات هي اضخم بكثير من تلك الحقوق التي تقدم لها . وعلى هذه الضيفة — كما يسمونها — ألا تناقش في امر يتعلق ببيتها ، لان بيتها ليس لها — كما يقولون — واذا قررت مسألة ،كان عليها ان تكون بعيدة عن الصورة ، والا فان اقامتها بينهم لن تطول — كما يرددون — والذي تزوجك يتزوج غيرك — كلام كثير لا يرتبط بمنطق ولا يخضع لعقل . ويعتقد الجاهلون ان الشرع اباح للرجل مثنى وثلاث ورباع ، يتحدثون في القشور ،ويتركون الجوهر ، وهم في ذلك ظالمون للشرع ، فالشرع فيما اعتقد حدد الزواج بواحدة وقيده بذلك لانه ربط المثنى والثلاث والرباع بشرط العدل والانصاف ، فأين الرجل العدل ؟ واين الرجل المنصف ؟ بل اين العدل في حياتنا ، وأين الانصاف ؟ «فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة» .

من هنا .. من هنا نسي الرجل تكريم الله له بالقوامة مع الرجولة ، فبغى وطغى وتكبر وتجبر . وما امر طغيان الرجل اذا طغى ، وما اقسى تجبره اذا تجبر ،

فمع ذلك الطغيان ، ومع تلك القسوة المفتعلة تميع الرجولة في نظره ، وتتداخل مقوماتها بعضها ببعض ، حتى تستحيل الى صورة اخرى ليست من الرجولة في شيء، بل هي شيء اسمه التحدي والظلم والتجبر والاستهانة بتلك الانسانة التي اضحت له نصيبا وقدرا ، وجعل الله منها ذريته التي تكمل حياته الحاضرة والمستقبلة . ولكن ذوبان مقومات الرجولة احالت زوجته في نظره الى متطفلة على حياته ، يبعدها ، بل يطردها من حياته ، ومن بيتها متى شاء له مزاجه المتقلب ونفسه الملول ذلك .

اقول ذلك في صورة من صور واقعنا المعاش ، صورة واحدة نقيس عليها آلاف القصص المشاهدة .

فهذا زوج يطرد زوجته من بيتها ،لان امه ترغب في ذلك ، حتى ان الزوجة قد اعتادت ان تطرد من بيتها ، كلما عن ذاك لزوجها ، متناسيا ذلك الزوج او متجاهلا ان لزوجه عليه حقوقا كما لامه او لاخته او اقاربه . اقول ، واخيرا نفد صبر الزوجة وقررت هي نفسها الانفصال عن زوجها لتبتعد عنمرارة الحياة التي ذاقت منها الالم والعذاب لسنوات طويلة ، مع زوج متقلب ، لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال .

وتعود الزوجة الى بيتها الاول الوهمي ومعها اولادها ، ومع ذلك كله ولشهور طويلة ، ينسى الزج او يتناسى ان لاولاده حقوقا عليه ، ويمضي الرجل في غفوته او غفلته ، ولا يستيقظ الا على قضية طلاق ترفعها زوجته من خلال المحكمة ، ويجن جنون الزوج الغافل الناسي ، لا على قضية الطلاق ، ولكن لان المسألة قد وصلت نشاطه وجهة اخرى هدفها محاولة التأثير على من تدعى زوجته حتى تسقط الدعوة .

ولن امضي في سرد الاحداث ، فهذه الواقعة تهم اصحابها في الدرجة الاولى ، ولكنها تهمنا بمقدار ما توزن به في ميزان الرجولة والقوامة . فأين الرجولة فيما يصنع هذا الرجل ؟ وماذا تعني القوامة في مقياسه وميزانه ؟ وماذا يريد هذا الرجل وامثاله ؟ يطرد زوجته فيصبح بلا هوية ولا استقرار ، ويعيد اليه زوجته ، لا ندما واستغفارا ، ولكن ليعود الى طردها من جديد ، وفقا لمزاجه المتقلب .

فماذا يريد مثل ذلك الرجل ؟ يصنع ولا يدري ما يصنع ! يفعل ولا يدري ما يفعل ، يقول ولا يدري ما يقول ، فأية حياة يحياها ،وتحياها معه زوجتـــه ؟ اية حيرة يحارها ، وتحارها معه زوجته ؟ هو دولاب يدور ويدور ، وعلى زوجه أن تدور معه وهي تلهث وتلهث . فلحظة نراه غاضبا ، وثانية راضيا ، وثالثة ساخطا ، ورابعة مازحا ، وخامسة ضاحكا ، وسادســـة جادا ، وسابعة لاهيا ، وثامنة صامتا ، وتاسعة باشا الى أبعد الحدود مع كل الناس الا مع زوجته ، وعاشرة أســـدا على زوجته فحسب ... وهكذا ، دون حساب لتلك الزوجة ، لتعبها ، لسهرها ، لشقائها في عملها داخل البيت وخارجه ، لاعصابها ، لمشاعرهـــا ، فهو يعتقد ان الزوجة آلة صماء لا تعي ولا تحس ، وينسى تماما القوامة التي لا تكـــون الا مع الرجولة ، وهذه تعني في مفهوم الشرع والمنطق والخلق والعرف والانســـانية ان يتواضع ، ويتواضع لله الذي كرمه التكريم كله ، واعطاه حق القوامة ، عن طريـــق اكرام زوجته وانصافها . وقوامة الرجل تعني ايضا ان يكون العقل الكبير الكبير ، والخلق العظيم العظيم ، والقلب الرحيم الرحيم ، وما سوى ذلك فهو اهدار لحق القوامة ، وانتقاص من قيمة رجولته ، ولا رجولة تكون ناقصة ، فاما رجل ورجولة ، او لا رجل ولا رجولـــة .

بــين قلبــين

عن انس رضي الله عنه : اتى رجل رسول الله (ص) فقال : اني اشتهي الجهاد ولا اقدر عليه . قال : هل بقي من والديك احد ؟ قال : امي . قال : قابل الله في برها . فاذا فعلت فأنت حاج ومعتمر ومجاهد .

والحديث الشريف ليس تهيئة لموضوع اتحدث فيه عن الام ، فقد تحدثت في هذا ،ولكن الحديث عنها في صورة اخرى يعرفها الجميع ، صورة متجددة تجدد الكون، انها صورة ام الزوج العظيمة ، وهذا يستتبع بالتالي صورة زوج الابن .

ولن يكون الحديث عن العلاقة التي تربط بين الاثنين ، فهذا امر لا يجهله احد . ولكنه حديث الى الرجل نفسه ، في موقفه ، وعدله وضميره بين من اوصى الرحمنبهما

وقبل هذا اهيىء النفوس فأقول : الام اطهر الخلق ، وامومتها اقدس العواطف وانبلها ، فهي العطاء بلا ثمن ، والتضحية بلا حدود ، والتفاني في غير كلل او ملل .

هذا امر سماوي لا نماري فيه ، ومهما قدم الابن لامه او والديه فانه لا يوفيهما الحق ، بل انه مهما كان الابن برا وفيا فانه لا يطيق ما كان يطيق الاب او الام من عذاب وآلام حين تنتابــه الاوجاع والاسقام .

جاء رجل الى النبي (ص) وقال له : يا رسول الله انني حججت بأمي من اليمن على ظهري ، وطفت بها البيت ، وسعيت بها ورميت لها الحجار بمنى ، فعلــت

ذلك كله وهي عجوز لا حراك لها ، وانـــا احملها على ظهري . فهل اديت حقهـــا علي ؟ فقال (ص) : لا . قال الرجل : لم ؟ قال : لانها فعلت ما فعلت بك في صغرك وهي تتمنى حياتك ، وانت فعلت ما فعلت بها وانت تتمنى موتها .

وتهرم الام بعد ان تكون قد غذت ابنها وسقته قوتها وشبابها حتى يغـــدو رجلا يستقبل الحياة بتلك القوة وتلك الجراة التي تحيا الام وتموت حتى تغرسها في نفسه.

ويستقل الابن عن امه رجلا قويا مهيأ لخوض الحياة ، وهنا لا بد من شريك يخفف عنه قسوة الحياة التي يكافح فيها . وهذا الشريك لا بد ان ترضى عنه الام التي تباركها زوجة لابنها ، اكراما لعيون هذا الابن .

وهنا تختلف الرسالة في ظاهرها ، وان كانت في اصلها استمرارا لرسالة الام . فالام زوجة قبل ان تكون اما . والزوجة ، تصبح اما فيما بعد .

فأمومة الزوجة جزء من امومة أم زوجها ، فهذه ام وتلك ام ، وبينهمـــا الابن الزوج .

فماذا عليه ان يصنع ؟ انه امتحان لرجولته التي صنعها كفاح امه وصبرها وتفانيها ، والتي اوقفت لها قوتها وشبابها وما لها وما عليها .

وكل هذا لا بد ان يقابله الابن بالبر والوفاء ، وقد أوصى سبحانه بها ايصاء قرنه بعبادته فقال «وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا» كما قرنـــه سبحانه بشكره فقال «ان اشكر لي ولوالديك الي المصير» .

بل ان الابن لا يوفي والديه الحق والفضل مهما قدم واخر فقال (ص) «لن يجزي ولد والده حتى يجده ملوكا فيشتريه فيعتقه» وهذا أمر غير حاصل بداهة .

اذن يبقى في ذمة الابناء الدين الكبير الهائل الى يوم يلقون ربهم .

بين هذا كله يقف الابن الزوج ، ومنه ينتقل الى الحياة الثانية ، حياة الاستقلال والاعتماد على النفس ، وتحمل المسؤولية ، ومواجهة الواقع حيث الكفاح والصراع والمكابدة في سبيل تحصيل العيش الكريم الآمن .

وحتى يتمكن الرجل من هذا كله لا بد له من شريك نفسي وسكن روحي ، يسكن اليه ويأنس به . قال تعالى «ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة» (الروم : ٢١) .

فكانت الزوجة هي من يأنس بها ويسكن اليها سكنا فيه قوله تعالى «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم انى شئتم» (البقرة : ٢٢٣) .

وقد تشدد الاسلام في اختيار هذه الزوجة حتى يتحقق فيها السكن فقال رسول الله (ص) : «الدنيا متاع ،وخير متاعها المرأة الصالحة» . وحث كذلك على الزواج بذات الدين لما في ذلك من تحقيق الامان والاطمئنان في حال غياب الزوج قبل حضوره فقال (ص) : «لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن ان يرديهن ، ولا تزوجوهن لاموالهن ، فعسى اموالهن ان تطغيهن . ولكن تزوجوهن على الدين . ولامة سوداء ذات دين افضل» .

وقال عليه السلام «اياكم وخضراء الدمن» اي المرأة الحسناء في المنبت السوء.

فاذا ما احسن الزوج اختيار زوجه كان ذلك ايماء ، بأنه سيحافظ عليها ويحميها ويكرمها ويحلها المكان اللائق بها ، ويدافع عنها ازاء اي شر . فان الرجل اذا احب زوجه اكرمها ، واذا كرهها لم يظلمها .

من هذا المبدأ كان على الزوج الا يحتار بين هذين اللقبين قلب امه من جانب ، وقلب زوجه من جانب آخر . فلكلتيهما حقها ، لا يتجاوزه الابن الزوج بحال ، ولا يجور قصدا وعمدا ، منطلقا من مبدأ الحسنى والتقوى والضمير ، وما يقدمه الابن يرجعه ابناؤه اليه في مستقبل الحياة .

وحين يقف الابن الزوج هذه الوقفة ، فانه ينطلق من رجولة تعدل بين قلبين يشاركانه مشوار الحياة ، مشاركة محبة وارضاء له وعمل على راحته ، وليست مشاركة منافسة ممقوتة . تلك سنة الله ، ودستور الحياة «فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا» .

فعواطف الابن الزوج تتوزع بالعدل وفقا لشريعة الله سبحانه . فلكل مكانتها ، ولكل تقديرها ، والاثنتان تعملان على اسعاده واستقراره .

والامر كل الامر متعلق بالرجل نفسه ورجولته ازاءهما ، حتى لا يزل في المعاملة بما يغضب الله والضمير فكثيرا ما نسمع العجيب والغريب في تطرف بعض الرجال ازاء الام العظيمة الصابرة او الزوجة المكافحة ، فان عقوق الابن قد يصل احيانا الى ايذاء الام ايذاء يقهر القلب ويطعن الروح ، ايذاء يشفعه بالضرب — استغفر الله — ، وكم يعذب صوت تلك الام التي تقول في ابنها العاق .

انشــا يمزق اثوابــي يؤدبني ابعد شيبــي يبغي عندي الادبــا

لن اعلق ، فان المرارة تحول دون ذلك ، ولكن انتقل الى تطرف اخر ، نجد فيه الابن الزوج ظالما لزوجه . ومن صور هذا الظلم صورة فلان مثلا ، وهو يعمل على اغضاب زوجه كلما زارته امه العظيمة من بلدها الاخر وترحيلها الى بيت اهلها ، وكذلك صورة هذا الذي يصر على ان تنام امه معه في فراشــه ويأمر زوجه ان تنام مع اولادها ، وقد يستمر الحال شهورا وشهورا ، وموقف الزوج لا يتغير ، وصورة ذلك الزوج وهو يأبى ان يغلق باب غرفة نومه مع زوجه حرصا على مشاعر الام العظيمة ، خشية ان تظن ان ابنها بعيد عنها ولو بالنوم .

وغير هذا كثير مما لا يقبله العقل والمنطق والام نفسها ، فانه ليس مما يغضب الام بحال ان يكون ابنها سعيدا مع زوجه ، وليس مما يسعدها ويرضي ربهــا ان يظلم ابنها زوجه ، وقد اوصى الشرع باكرامها .

وليست هذه الزوجة الا الامينة على ظهره وبيته واولاده ،والعاملة بتفان على راحته وهنائه واستقراره واسعاده . وقد مضى الرسول (ص) يؤكد شريعة اللــه تعالى في اكرام المراة وعدم اهانتها وظلمها ، وكانت اخر وصاياه في حجة الوداع «اوصيكــم بالنساء خيرا» . وهو (ص) خير قدوة في معاملة اهله ونسائه فقال «وخيركم خيركم لاهله ، وانا خيركم لاهلي» .

وصدق رسول الله

العامل في الاسلام

عيد آخر من الاعياد العصرية المفتعلة هو عيد العمال في الاول من أيار في كل عام :.

وفي هذا اليوم يستيقظ العالم فجأة ، وكأنه يفاجأ بأن للعمال عيدا . ونحن للاسف نهب معه متناسين ان الدين الحنيف قد سبق العالم كله في الاحتفال بالعامل والعمـــل .

ولا يزال يتردد في اذهاننا اول حق من حقوق العامل في حديث رســـول الله (ص) «اعطوا الاجير اجره قبل ان يجف عرقه» .

وحرص الاسلام على هذه الحقوق ، فرفع من شأن العامل ، واعلى قدره ، وحرم استغلاله وهضم حقوقه ، واغتصاب عرقه ودمه من قبل صاحب العمـــل الذي هو واحد منهم ، وليس الها معبودا ، بما اعطاه الله من سلطة المال وسطوة الجـــاه .

فكثيرا ما نسمع ان فلانا مثلا قد استخدم عمالا لقاء اجر معين ، ولكن ما ان يحين موعد تسلمهم اجرهم ، حتى يفاجأوا بانتقاص هذا الاجر عما اتفقوا عليه .

من هنا كان الاسلام ارحم بالعامل من نفسه فقال رسول الله (ص) في حديثه القدسي «ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته : رجل اعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر اجيرا فاستوفى منه ، ولم يعطه اجره» .

واولو العزم من الرسل خير قدوة لنا في تأكيد قيمة العمل الشريف ، الذي يدعم كيان صاحبه ، ويعطيه الثقة بقدراته البناءة وطاقاته المعطاءة مهما كان عمله .

فمهنة نوح عليه السلام هي النجارة وصناعة السفن «واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه» (هود : ٢٧) .

ومهنة داود عليه السلام الحدادة ، التي تدر على صاحبها اليوم ذهبا «ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال او بي معه والطير والنا له الحديد ان اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا اني بما تعملون بصير» .

واشتغل موسى عليه السلام برعي الغنم عشر سنوات اجيرا في ارض مدين قبل ان يبعثه الله رسولا .

وكان سيدنا محمد (ص) يرعى الغنم في صدر شبابه ، ثم اشتغل بالتجارة في مال خديجة بنت خويلد زوجه رضي الله عنها .

فالاسلام يحث على العمل ، ويبيح للعامل ان يجني ثمار عمله ، وكفاء جهده قال سبحانه وتعالى «فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله» . (الجمعة ١٠) .

بل انه يرغب في العمل الى ابعد الحدود فيقول تعالى «فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه» .

الى جانب هذا فان العمل يجب ان يكون عاملا من عوامل اسعاد صاحبه ، فان لنفسه عليه حقا «وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا» . (القصص : ٧٧) .

وبلغ من تكريم الاسلام للعامل ان فضله على المتعبد فقد ذكر رجل عند النبي (ص) بالاجتهاد في العبادة والقوة على العمل ، وقالوا صحبناه في سفر فما راينا بعدك يا

رسول الله اعبد منه . كان لا ينفتل من صلاة ، ولا يفطر من صيام . قال النبي (ص): فمن كان عونه ويقوم به ؟ قالوا : كلنا . قال : كلكم اعبد منه .

كما ان العامل كالمرابط المجاهد في سبيل الله سواء بسواء فقال تعالى «وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله واخرون يقاتلون في سبيل الله» .

وقال رسول الله (ص) «العائد على اهله وولده كالمجاهد المرابط في سبيل الله».
وقال «اليد العليا خير من اليد السفلى وابدا بنفسك ثم بمن تعول» .

وانشد ابو عبيد القاسم بن سلام :

لا ينقـــص الكامـــل مـــن كمالـــه

ما ســـاق من خيـــر الـــى عيالـــه

فالعامل في سعيه على رزق ولده احرى بأن يحافظ على هذا الرزق الذي يصون به ماء وجهه قبل ان يصون انفاس الحياة ، وهو اعلم من سواه بمصلحته ومصلحة عياله . قال محمد بن ادريس الشافعي «احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس فانه لا سبيل الى السلامة من السنة العامة» .

وقال مالك بن دينار في هذا «من عرف نفسه لم يغيره ما قال الناس فيه» .
وقد وعد الله العاملين الذين يجهدون لكسب عيشهم بالجزاء الاوفى يـــوم القيامة ، فضلا عما يكسبونه في حياتهم الدنيا من نعمة وستر قال تعالى «وتلك الجنة التي اورثتموها بما كنتم تعملون» .

وشرط هذا الاجر الرباني النية الصالحة التي تكسب العامل النشيط ثناء رب العمل في الحياة الدنيا ، وجزاء الله تعالى في الاخرة .

روى كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : مر على النبي (ص) رجل فرأى اصحاب رسول الله من جلده ونشاطه فقالوا : يا رسول الله : لو كان هذا في سبيل الله ؟ فقال رسول الله (ص) «ان كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل

الله ، وان كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى رياء ومظاهره فهو في سبيل الشيطان» .

وعفة النفس وكفها عن مسألة الناس لا تتأتى الا بالعمل الشريف مهما كان ضئيـــلا .

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ص) : «لان يأخذ احدكم حبله فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من ان يسأل الناس اعطوه ام منعوه» .

والعامل المؤمن النشيط يعمل على مضاعفة جهده في الانتاج ليتحقق المطلوب في وقت اقل مما هو مقرر له ، وذلك يعمل على دفع المجتمع في دروب الرفعة والعزة والاكتفاء الذاتي ، اقتداء برسول الله (ص) وهو يشجع عمار بن ياسر رضي الله عنه حين كان يحمل حجرين حجرين في بناء مسجد المدينة ، بينما سائر الناس يحملون حجرا حجرا .

وليس ذلك الا لادراك الرسول (ص) قيمة العمل في بناء المجتمع الاسلامي ، حيث يكسب العامل الكسب الحلال من عمل يده .

عن سعيد بن عمير عن عمر رضي الله عنه قال : سئل رسول الله (ص) : اي الكسب اطيب ؟ قال : عمل الرجل بيده ، وكل بيع مبرور» .

وعن عبدالله بن محصن رضي الله عنه ان رسول الله (ص) : «من اصبـــح آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».
وتلك هي سعادة الحياة الآمنة ، حيث سلام النفس ، وطمأنينة الجوارح ، وهذه لا تتأتى الا بعد معاناة العيش ومكابدته .

عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله (ص) : «من امسى كالا من عمل يده امسى مغفورا له» .

صدق رسول الله

الريـــــــــاء

قال تعالى «ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا» .

فالرياء مرض من امراض القلب وهو توءم النفاق ، وهو ان يظهر الانسان ما يخالف نوايا قلبه ، وحقيقة ما تكنه نفسه . وهو من اعظم الكبائر ، واخبث السرائر، وهو مبطل للاعمال مفسد لها .

والمرائي ممقوت ، بغيض ، مبعد عن كل خير . وقد حارب الاسلام الريـــاء والمرائين في كثير من آيات الكتاب العزيز ، واحاديث رسول الله (ص) . وقد جعله الاسلام بمنزلة الشرك الاصغر قال (ص) : «ان اخوف ما اخاف عليكم الشـــرك الاصغر . قالوا : وما الشرك الاصغر يا رسول الله ! قال : الرياء» .

وصور الرياءكثيرة لا تحصى في حياتنا ، ويتوهم صاحبها انها تخفى على الله ، وان كانت خافية على الناس . فالرياء — كما ورد — اخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة المظلمة على الصخرة السوداء . ولكن الله لا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الارض ، والله سبحانه يكشف رياءهم ، و«يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانـــوا مهتديـــن» .

ومن صور الرياء كما ورد عن علي كرم الله وجهه قوله : «للمرائي اربـــع علامات : يكسل اذا كان وحده ، وينشط اذا كان بين الناس ، ويزيد في العمل اذا اثني عليه ، وينقص منه اذا ذم به» .

واشد احوال الرياء جراة عند الله ، واعظمها جرما الذي يتستر بالاسلام ، بالتبتل والخشوع لاركانه وادابه ، ويظهر التأدب بآدابه ، وقلبه مشحون بزيف الدنيا وزخرفها ، ويكون ابعد ما يكون عن جوهر الاسلام في اعماقه وسريرته . قال تعالى : «واذا لقوكم قالوا آمنا ، واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ . قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور» . (آل عمران : ١١٨) .

وطائفة اخرى ترائي بعمل الطاعة في العلن ، وتتخلى عنه في السر . وهذه الفئة تبغي طاعة الناس بعيدا عن طاعة الله ورضاه . قال (ص) حين سأله رجل فقال : يا رسول الله فيم النجاة ؟ فقال ان لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس» .

وطائفة اخرى تأتي ما تأتي من بذل المال وانفاقه في كل وجه الا الوجه الذي يراد به حب الله ، وليس ذلك الا ليوصف صاحبه بالجود والسخاء . فنرى المال مثلا ينفق بسخاء على الولائم المفتعلة التي تستنفذ الطاقة المادية والنفسية ، ويجري الانسان بعدها لاهثا وراء جهده وعرقه .

صورة اخرى من صور الرياء المرائي في صلاته ، لا يريد بهذه الصلاة وجه الله سبحانه ، لانه يتخفف من صلاته اذا ما خلي ونفسه ، ولكن اذا ما علم ان الناس تراه فانه يجد ويجتهد ويحسن صلاته التي يتخذها شباكا يصيد به ثناء الناس وحسن رأيهم في صلاحه وورعه ، حتى يتمكن من النفاذ الى ما يريد من زينة الحياة الدنيا «فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون» . والعمل الذي لا يراد به وجه الله تعالى فان عاقبته الخسران .

ومن صور الرياء كذلك المراءاة بالعلم ونشره عن طريق التشدق بالكلمات والتفاصح في العبارات ، وتزويق الالفاظ التي يرائي من خلالها ، وهو في ذلك لا يقصد نشر العلم حبا في الله ، ولكن ليوهم الناس ان ما عنده من العلم كثير غزير ، يتحدى به غيره ، وهو يجهل كل الجهل انه يكشف عن خواء تام يغطيه ويستره بتشدقه وتفاصحه .

ومن صور الرياء كذلك المراءاة بالمخالطين والزائرين . يتكلف احدهم ان يستزير عالما من العلماء ، او يتمسح بشخصية من الشخصيات المعروفة حتى يقوم له بذلك

جاه عند العامة ، وحتى يقال عنه انه ذو شأن كبير وخطر عظيـــم ، فيستطيع — من خلال ذلك النفاذ — الى ما يريد من زينـــة الحياة الدنيا .

صور اخرى كثيرة من الرياء يضيع الانسان فيها ، ويلتبس عليه من خلالها الصدق في العمل ، فلا يعود يدري ان كان ذلك العمل اخلاصا لله وحبا في الله وتقربا من الله او انه تدليس ومراءاة ، فالرياء كما تقدم اخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة المظلمة على الصخرة السوداء . ويتوهم المرائي انه يخدع الله والناس ، ولكنه لا يخدع الا نفسه ، فتزداد حقارة نفسه ، وتتضاعف المذلة في اعماقه «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الاخر وما هم بمؤمنين ، يخادعىن الله والذين آمنوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون» . (البقرة) .

من خلال ما تقدم قد يتساءل سائل فيقول : هل حبط كل ما فعلناه من خير ؟ وهل ذلك الذي اعتقدناه خيرا هو الخسران المبين؟ فما الخير اذن ؟ وكيف يكون الاخلاص فيه ؟ وهل يقيد الانسان في فعل الخير بكل تلك القيود ؟ اقول من يفعل الخير صامتا حبا في الله فان القيود تتلاشى من ذهنه ، اما اذا كان الخير مراءاة وتضليلا فانه يحس في نفسه القيود التي تكبله وتجعله في قلق دائم وحيرة قاتلة ، حتى اذا افترضنا جدلا بوجود القيود فانها بمقدار تكريم اله سبحانه وتعالى للانسان ، وبمستوى تفضيل الله تعالى له على الملائكة ، فجعله خليفته على الارض ، عند كل ذلك يطلب من الانسان الشكر والحمد والتفاني والاخلاص في العبادة ، في عمل الخير ، في نشر العلم حبا في خالقه ، ويطلب منه المجاهدة الدائمة للنفس الامارة بالسوء حتى يكون بحق عند مستوى التكريم الذي كرمه به خالقه سبحانه «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممنخلقنا تفضيلا» .

صدق الله العظيـــم

خلق الانسان من عجل

كثيرا ما نقرأ في القرآن الكريم قصة سيدنا ايوب عليه السلام ، ومدى ابتلائه وصبره على هذا الابتلاء .

وقد اتخذ صبره صورة واحدة مع اختلاف بلاياه ومصائبه وتنوعها . وقد بلغت هذه من الالم والقسوة حدا يجعلنا نتساءل : ما تلك القدرة الخارقة والطاقة الهائلة التي اوتيها ايوب ! .

ومع هذا فانه عليه السلام بشر من البشر ، وان يكن في صبره قدوة ، ولكن قل من يقتدي بها ، مع كون بلية المبتلين دون ما ابتلي به ايوب عليه السلام «وأيوب اذ نادى ربه اني مسني الضر وانت ارحم الراحمين» .

ومع هذا فان ايوب ليس غرضي هنا ولكن صبر ايوب او بعض هذا الصبر لانسان هذي الحياة .

واحدد هذا الصبر المرجو في جانب حياتي واحد من واقعنا الملموس ، واوجزه في آية كريمة انطلق من خلالها الى موضوعي : «لله ملك السموات والارض يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء اناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور ، او يزوجهم ذكرانا واناثا ، ويجعل من يشاء عقيما ، انه عليم قدير» (الشورى ٤٩) .

فالآية الكريمة واضحة في ان الله سبحانه يهب لمن يشاء اناثا فقط ، ويهب لمن يشاء الذكور ، او يهب اناثا وذكورا ، ويجعل من يشاء عقيما .

هكذا .. ولحكمة سماوية تدق على افهامنا وادراكاتنا ، يهب الله البشر هذه الهبات المصنفة ، اما حين يجعل من يشاء عقيما فهذا هو السر الاكبر ، وهي الحكمة التي فيها من رحمة الله ورأفته ما نعجز عن الوصول الى كنهه .

ولكن فيه من الكتاب العزيز بعض اشارات ، وهي تذكرني بقضية سيدنا موسى عليه السلام والخضر حين انطلقا في البحر «فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله قال اقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا» .

وحين سأل موسى الخضر عليهما السلام عن سر قتله الغلام كان الرد «واما الغلام فكان ابواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا» .

ولكن الناس في هذا مختلفون جهلا وضلالا ، وهم يمتثلون اساليب متنوعة من العيش نطلق عليها احيانا اسم الخبر او الحكاية ، لنسمها ما شئنا . اهم ما فيها انها تحكي حياة الناس .

فاحدى الحكايات الواقعية تقول خلفة فلان مثلا من الذكور ، وخلفة آخر من الاناث . وهذا الاخير يتحرق شوقا الى ذكر يحمل اسمه . ولكن ما الوسيلة ان كان الله شاء له ما شاء ؟ .

عندها تراوده فكرة ، بل ان الناس هم من يزرعها في عقله ، وهي الزواج الجديد حتى يتحقق له ما يريد .

ويتم الزواج الجديد فاذا بزوجته الاولى تحمل بعد يأس وانقطاع لانها مشيئة الله وارادته ولا راد لحكمه .

وهنا اقف ليتدخل الصبر ، وهو يتنافى مع العجلة التي تؤكدها الآيات الكريمات «وكان الانسان عجولا» و «خلق الانسان من عجل» .

وآيات الصبر كثيرة تنيف على السبعين موضعا في القرآن الكريم . وقد اضاف الله سبحانه وتعالى اليه اكثر الدرجات والخيرات ، وجعلها ثمرة له فقال «ولنجزين الذين صبروا اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» وقال جل وعلا «انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب» .

وقال صلى الله عليه وسلم «الصبر نصف الايمان» و «الصبر كنز من كنـــوز الجنة» . وسئل صلى الله عليه وسلم : ما الايمان ؟ فقال : «الصبر» .

فأين الصبر من ذاك الذي انعم اللهعليه بالانثـــى ، فرآها دون نـــعم الله التي يراها من حوله ، فأخذ يتحسر على ما فاته ، واذا بالحسرة تستحيل الى انثى ثانية وثالثة وهكذا .. من الله سبحانه .

كل ذلك وهو لا يرعوي فلعله يدرك سر الله وحكمته مع كل طفلة تولد له ، وعساه ان يرضى بما قسم الله له ، ورب صبر يقوي قلبه وينيره .

فقد تتزوج الانثى رجلا تقيا مؤمنا يكون لاهلها بمثابـــة الابن البار ، بل ان هذه الانثى التي تتربى في ظلال التقوى نفسا وروحا وعقلا لهي احب الى الله من الذكر السادر في ظلمات الضلالة والغي .

عن ابن عباس رضي الله عنه ، لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانصار فقال : أمؤمنون انتم ؟ فسكتوا فقال عمر : نعم يا رسول الله . قال : وما علامة ايمانكـــم ؟

قالوا : نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء . فقال صلى الله عليه وسلم : مؤمنون ورب الكعبة .

ومع هذا نعود فنسمع العجب عن جهل بعض الرجال اذ يمضي هذا في غلوائه وضلاله فيحلف بالطلاق من زوجه ان هي انجبت الانثى ، وكأن المراة تصنع الطفـــل بيدها ـــ استغفر الله ـــ ولا دخل فيه للرجل ، وينسى او يتناسى جهلا وعماية ان ما يزرعه هو تحصده زوجـــه .

ويشاء الله سبحانه بواسع رحمته ان يحلل الرجل من حلفه صيانة للمراة واكراما لها ، فيهبه توأمين انثيين . هكذا . وعندها فقط اتخيله يردد لا اله الا الله . ولا حول ولا قوة الا بالله .

أما حين اصل الى قوله سبحانه «ويجعل من يشاء عقيما» فانني أتريث خوفا وفرقا . اذ ان حكمته سبحانه في هذا تفوق كل تصور ، وتغلب كل ادراك .

وقد افتى الشرع في كون هذا الامر سببا من اسباب زواج الرجل من جديد ، ولكنه سبب اختياري لا اجبار فيه . فقد يرضى الرجل بقسمته وقضاء الله فيه ، فيصبر على هذا ويحمد الله عليه ، ولا يحمد على مكروه سواه .

ولكن ذلك لا يكون دافعا للرجل على صب ظلمه وتعنته على زوجه ، حتى تكره من خلاله الحياة ، فتستحيل في نظرها سوداء قاتمة فقال سبحانه «ولا تمسكوهــن ضرارا لتعتدوا» .

عندها «فامساك بمعروف او تسريح باحسان» .

حتى اذا وصلت العلاقة بين الزوجين الى اشد حالات الكراهية ، فان اللــه سبحانه لا يقبل لها ان تنفصم «وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا» .

ومن هذا المنطلق قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل هم بطلاق امرأته لانه لا يحبها «اوكل البيوت بني على الحب ؟ فأين الرعاية والتذمم ؟» .

وهذه الرعاية توجبها العلاقة الرحيمة التي تقوم في الاسرة . فهي قبل كل شيء رحمة ومودة ورأفة وألفة ، وليست شركة تقوم على المصلحة المادية الدنيوية ، فان هذا يسرع في تفككها ، ويعمل على زرع بذور الكراهية والشر والفساد بين الزوجين.

والاسلام دين الرحمة والتعاطف والتكافل ، حين اوصى الرجل بالمرأة ، وتشدد في ذلك كثيرا حين جعل التقوى في الرجل ميزان رجولتــه ، فانه اذا احب زوجــه أكرمها واذا كرهها لم يظلمها .

وهكذا اقول الصبر ، ولا شيء غيره .. وبشر الصابرين» ، «ولئن صبرتم لهو خير للصابريــن» .

صدق الله العظيــم

في ذكرى مولد رحمة العالمين

قال تعالى : «لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين». (آل عمران : ١٦٤) .

انه الضلال المبين الشامل الكامل ، وقد مادت الارض واضطربت بأوزار اهلها وخطاياهم ، وتخبطت البشرية كلها في ضلالة عمياء لم يعد فيها منفذ لضوء ، والاكوان كلها بحر لجي من ظلمات بعضها فوق بعض . وقد اباحت لهم جهالتهم الجهلاء ما لا يمكن لعقل ادراكه وتصوره ، فقد انغمسوا فيغرائزهم وشهواتهم وحيوانيتهم حتى سفوا عن الحيوان نفسه ، وعمت الفوضى جميع علاقاتهم ، حتى باتت الخطيئة اصلا ، والفضيلة هي الفرع المستكين في اعماق بعيدة الغور . وسيطر على الحياة رذائل تفنن فيها اهلوها ، فاستبيحت ـ ما تسمى في عرف العقل والمنطق ـ المحرمات بألوانها المتعددة .

ومن هذا المنطلق انطلقوا يتخبطون في زوايا حياتهم ، فقويهم يأكل ضعيفهم وغنيهم يدوس فقيرهم ، والثأر يفتك بهم . ولم تبق عليهم حياتهم هذه اي وازع من ضمير او رادع لجبروتهم وتسلطهم ، فالرحمة منتفية في قلوبهم ، والشفقة ميتة في مشاعرهم ، والرقابة معدومة في ضمائرهم . فأية ضمائر ولا قانون ينظمها ؟ واية قلوب وقد ران عليها اقفالها ؟ واية مشاعر ولا مشاعر غير الظلم والبغي ؟ فأي ظلم واية قسوة يصلون معها الى واد بناتهم . فهل يرجى بعد ذلك اي خير في مجتمع كهذا ، في امة كهذه . وأمة القبائل هذه واحدة من اهم العالم آنذاك . وقد اجتمعت كلها على الظلم والقتل وهتك الاعراض ، كل بطريقة تفكيره وظروفه اهدروا حقوق

الانسان على الارض ، وادناها حق العيش ، حتى باتت حياة الانسان اتفه الامور في مقياس القوة ، وفي ميزان الظلم . واية حياة آمنة يرجوها الانسان وهو يرى اخاه من بني الانسان يقدم طعاما للحيوان الجائع ؟ واي امل يرجوه الانسان في حياة لا مكانة له فيها ؟ فقد استحال المجتمع آنذاك الى آلات خرساء لا تعي ولا تدرك ولا تفكر ولا تحس ، اذ لا حب ولا رحمة ولا شفقة ولا عطف . فأين الخلاص ؟ وكيف النجاة؟ وفيم الامل ؟ وقد سدت على الناس جميع منافذ الحياة ، واوصدت في وجوههم سبل الامان ؟ فليس الا الخوف والفزع والهلع والقلق ، وبلغت قسوة الحياة بهم اقصاها ، وباتت النفوس في ذروة قلقها تتطلع الى الخلاص ،وامست القلوب في قمة توجسها ترتجي الامل . فالانسان بكله يترقب ويتطلع ويتهيأ ، والبشرية بأسرها باتت تحس ان النور يعقب الظلام ، والازمة تنفرج بعد اشتداد ، واقتربت قلوب كثيرة من النور الذي تتهيأ الاكوان لاستقباله بعد حلكه فبشرت قبل مولده البشائر وايدت صدقه المعجزات والبراهين ، وبشرت به توراة موسى وانجيل عيسى ، وتجسد ذلك فيما جاء في الكتاب العزيز «واذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه احمد» . وقال رسول الله (ص) : «انا دعوة ابي ابراهيم وبشرى اخي عيسى» .

وكان النور ، وكان الامل ، وكانت الرحمة ، وكان ميزان العدل في مولد رسول العالمين ، النبي العربي الامي ، وكان تاريخا سجدت له الاكوان ، يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الاول . وكانت المعجزات في هذا المولد العظيم ، ففيه خبت نيران المجوس ، وسقطت اربع عشرة شرفة من ايوان كسرى ، وتردد صدى المولد العظيم في جنبات الاكوان وتلقفت القلوب والضمائر ذلك النبأ ، ودار التاريخ دورة هائلة اختفى معها وجهه الكالح وحل محله وجه ازهر نوراني .

ويطلع نجم احمد ، ويقف يهودي على اطمة يثرب وهو يصرخ بأعلى صوته : «يا معشر يهود ! حتى اذا اجتمعوا اليه قالوا له : ويلك مالك ؟ قال : طلع الليلة نجم احمد الذي ولد به» .

وقد شاءت العناية الالهية ان ترفع عن كاهل الانسان ذلك الظلم الشامل ، وكانت الهواتف الطائفة تعلن في رؤوس الجبال ، وسفوح الاودية ومدارج السبل واواوين القصور بشرى الرسالة ، وظهور النبي المنتظر ، وتكشف ستار القدرة عن عالم الارواح فجمع الله سبحانه وتعالى ارواح الانبياء والمرسلين ، واخذ عليهم جميعا العهود والمواثيق ان يؤمنوا برسالته ، وان يصدقوا دعوته ، ثم اشهدهم على هذا العهد الوثيق وكان معهم من الشاهدين «واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم واخذتم على ذلكم اصري . قالوا اقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين» . (آل عمران ٨١) .

وجاء المصطفى رحمة للعالمين ، وهدأت النفوس بعد قلق ، واطمأنت القلوب بعد خوف ، وقرت العيون بمعجزاته (ص) ، فكان الامان والاطمئنان ، والرحمة والشفقة ، وكان القلب الذي وسع البشرية بكل ادوائها وعلاتها ، والصدر الذي استراحت اليه الانسانية بعد طول تخبط وضياع وحيرة . واستقام ميزان الحياة «وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا» .

وكانت الرسالة المحمدية الشاملة سعادة الدارين وبهذه الرسالة تستكمل رسالات السماء المواكبة تدرج البشرية في مدارج الطفولة والصبا ، ويكتمل البناء الذي شادته السماء على الارض بأيدي انبيائه ورسله صلوات الله عليهم فيقول (ص) : مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل شيد بيتا الا موضع لبنة فيه . فكانوا يقولون ما اجمله لولا هذه اللبنة . فأنا هذه اللبنة وانا خاتم النبيين» .

واليوم نحتفل بمولدك يا رسول الله ، يا حبيب الله ، ومولدك يعني تأكيد مبادىء العدالة على الارض ، وهو يعني تجديد القيم الانسانية التي تاهت وحارت على الارض قبل مولدك فكنت لها الامان والبر والسلام .

بـــك بشـــر الله السمـــاء فزينـــت

وتضوعـــت مسكـــا بـــك الغبـــراء

انصفـــت اهل الفقر من اهل الغنى

فالكـــل في حـــق الحـــياة ســـواء

انـــت الـــذي نظـــم البريـــة دينـــه

ماذا يقـــول وينظـــم الشـــعـــراء

المصلحـــون اصابـــع جمعت يـــدا

هي انت بل انت اليـــد البيضـــاء

المـداراة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مداراة الناس صدقة» :

وأكاد اقطع بأن المداراة من ادق فنون القول والاجتماع لانه فن تعجز عنه بعض النفوس التي تغلب عليها الجراة في قول الحق غلبة لا يستقيم معها الاناة والصبر وطول النفس في المداراة والمجاملة .

والمداراة حسن اللقاء ولين الكلام مع عدو تجتمع به ، فنبالغ في التلطف معه والاكرام دون ان تشعره بسخط او غضب او استنكار ، الا في بعض الاحوال التي تشعر فيها ان مكاشفته بما في قلبه خير لك وله من اضماره ومداراته . وذلك حين يستشري الشر ، ويستفحل الخطر ، ويأخذ في اثارة البلبلة واختلاق الاقاويل بغير وجه حق .

أما حين يكف المرء شره عن غيره مع ما يضمر من عداوة ، فذلك احرى بأن يداري ويجامل ويتلطف معه التلطف كله .

عن أبي الدرداء قال «أنا لنبش في وجوه قوم وان قلوبنا لتلعنهم» .

وهناك من يخلط بين المداراة والمداهنة ، حتى ليكاد يجعل منهما شيئا واحدا .

فالمداهنة هي ان يتلون المرء بين شخصين متعاديين يشعر كلا منهما انه صاحبه ، في الوقت الذي ينم عنهما كليهما .

اما المداراة فهي مجاملة العدو مع حجز اللسان عنه ، وعدم التشهير به في ظهره ، وذلك يكون اتقاء لشره وابعادا لاذاه .

قالت عائشة رضي الله عنها : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «ائذنوا له فبئس رجل العشرة هو» ثم لما دخل الان له القول . فقال : «يا عائشة ان شر الناس الذي يكرم اتقاء شره» .

والرسول صلى الله عليه وسلم في هذا معلم ناصح ، يعلم ادبا من آداب الاجتماع ، وهو الرفق المتناهي ، بانسان عرف شره .

ولكن هذا لا يمنع من اشعار ذلك الشخص بطريق ذكي بما يضمر في نفسه ، وذلك بمعالجته بالموعظة الحسنة ، ما لم يكن هذا الانسان شيطانا ماردا ، سخر لسانه في قيل وقال دون شبع او روية .

قال شبيب بن شيبة بن خالد بن صفوان : ليس له صديق في السر ولا عدو في العلانية ، اي ان الناس يدارونه لشره فحسب .

وقد تبلغ النفوس الذكية بمداراتها حدا تستل معه سخيمة العدو ، وتطفئها . بل انها تقلبها احيانا الى صداقة . قال محمد بن ابي الفضل الهاضمي . قلت لابي : لم تجلس الى فلان وقد عرفت عداوته ؟ قال : اخبي نارا واقدح ودا .

اما اذا لم يتم اطفاء العداوة تماما فان اضعف الايمان ان يمنع المرء الجرح من ان يتسع .

قال عقال بن شبة : كنت رديف ابي فلقيه جرير الشاعر على بغل ، فحياه ابي والطفه . فلما مضى قلت : ابعد ما قال لنا وما قال ؟ قال ابي : أفاوسع جرحي.

وقال احد حكماء بني أسد:

وامنحه مالي وودي ونصرتي

وان كان محنى الضلوع على بغضي

وهناك المداراة الرحيمة الرفيقة التي يرجى منها صرف انسان عن عمل أو قصد ، ولكن في صرفه ايلاما له ، فيلجأ الانسان الى هذه المداراة التي لا يحس معها المرء بالالم وقسوة الحياة .

فقد اصاب الكسائي وضح (برص) ،وهو مؤدب ابناء هارون الرشيد ، فكره الرشيد ملازمته لاولاده فقال له : كبرت في السن ولسنا نقطع راتبك ، وامره ان يختار لهم من ينوب عنه ممن يرضاه ، فاختار لهم علي بن الحسن المعروف بالاحمر .

وتعتمد المداراة على ذكاء الشخص وحسن تصرفه ، فهو الذي يقدرها بما يتناسب مع الشخص الذي يداريه .

وتكون مداراة الشخص الذي يرجى صلاحه ، وعوده الى رشده فوق مداراة ذلك الذي شب على عوج الخلق ولؤم الطبع ، الى درجة استحال معها اصلاحه ، اذ ان المداراة تزيده فحشا ، بل تزيده اختلاقا وتزويرا .

واضح اذن أن المداراة لاتصدر عن ضعف أو جبن ، بقدر ما تعتمد على اتقاء الشر ودفع الاذى ، لان المداري عليه أن يحفظ ظهر عدوه بعدم مقابلته بمثل أذاه في ظهره .

أما ما نراه في حياتنا فهو المداراة الصادرة عن رهبة فان المداري يستخدم ذكاءه وفطنته في مداراة الآخرين ، حتى اذا انقلبوا عنه اخذ ينهش لحومهم مشركا سواء في هذاالامر .

وشيئا فشيئا اذا بالمداراة تستحيل الى مداهنة ، واذا بالمداري يتحول الى مداهن . وبقدرة قادر تنقلب حسناته في المداراة الى سيئات في المداهنة ، لانه خان اللسان الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم «رحم الله امرأ قال خيرا فغنم أو سكت فسلم » .

فقد قال هذا الانسان في أول أمره خيرا بالمداراة وخاف الله فيها ، ولكنه لم يخف الله حين أطلق لسانه في الظهر فكان ممن قال فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم « من خاف الله خوف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله خوفه الله من كل شيء » وصدق رسول الله

المهــــور

يكاد أو كاد المهر يصبح ظاهرة عامة تستدعي الوقوف عندها ، لما لها من الاثر السلبي في بيئتنا ومجتمعنا .

والشيء البارز في الظاهرة هو التغالي في مسألة المهور والتفنن فيها ، من خلال المنافسة التي تعود بالضرر على الفتاة أولا واخيرا . وهذا يدفع الشاب بالتالي الى الهروب أو التمرد على عرف مجتمعه وتقاليده ، فيندفع وراء البحث عن أيسر السبل التي لاتحمله الجهد الجسدي والنفسي ، فبتنا نرى الكثير من شبابنا يسافرون الى البلاد المجاورة لايام قلائل ، يعودون بعدها بزوجات غريبات ، اختصرن معهن الشوط الطويل في المهور بشروطها وحدودها وقيمتها وهكذا .

والاسلام وهو دين البشرية العدل قد حفظ للمرأة كرامتها ، وأحاطها بسياج عدل لا ينفذ من خلاله ظلم كائن من كان . فقد كانت المرأة في الجاهلية مهضومة الحــق ، مهيضة الجناح ، حتي ان وليها كان يتصرف في خالص مالهــا ، ولا يدع لها فرصــة التملك ، ولا يمكنها من التصرف . فكان أن رفع الاسلام عنها هذا الاصر ، وفرض لها المهر ، وجعله حقا على الرجل لها ، وليس لابيها ولا لاقرب الناس اليها ان يأخذ شيئا منها الا في حال الرضا والاختيار . قال تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة . فان طبن لكم عن شيء منه نفسا ، فكلوه هنيئا مريئا » . (النســاء : ٤) .

فاذا أعطت الزوجة شيئا من مالها حياء او خوفا او خديعة فلا يحل أخذه قال تعالى « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض ، واخذن منكم ميثاقا غليظا » . (النســاء : ٢١ و ٢٢) .

والمهر او الصداق في مفهومه الاسلامي يحفــظ على المرأة كرامتها ، بعيدا عن مفهومه الاجتماعي الذي اكتسبه من المغالاة فيه . فهو كما جاء به الاسلام يطيب نفس

المرأة ويرضيها ، بقوامه الرجل عليها ، وهو ترضية لنفسها وتهيئة لها تهيئة تبقي عليها عزتها ، وتشعرها بصيانة الرجل لها وحمايتها في المستقبل ، مع ما يضاف الى ذلك من توثيق الصلات ، وايجاد أسباب المودة والرحمة . قال تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من أموالهم » . (النساء : ٣٤) .

أما قيمة المهر فلم تجعل الشريعة حدا لقلته أو كثرته ، اذ ان الناس يختلفون في الغنى والفقر ، ويتفاوتون في السعة والضيق ، ولكل جهة عاداتها وتقاليدها ، فتركت التحديد ليعطي كل واحد على قدر طاقته ، وحسب حالته وعادات أهله .

ولكن الشرط الذي وضعه الشرع للمهر هو ان يكون له قيمة بقطع النظر عن القلة والكثرة ، فلو تزوجها بصداق يسير ولو ملء كفه طعاما من قمح أو دقيق فانه يصح ، ولكن يسن أن لا ينقض المهر عن عشرة دراهم ، لما رواه جابر مرفوعا « لو أعطى رجل امرأة صداقا ملء يده طعاما كانت له حلالا » .

وهذا يشعر أن الصداق أو المهر ليس مقصودا لذاته في الزواج ، وانما هو مقصود للاشارة الى أن الرجل ملزم بالانفاق على المرأة من أول الامر .

ومن هنا نرى أن الشرع قد يسر المهر لتيسير الزواج ، لما في تيسيره من حل لمشكلات كثيرة معقدة قد تضر بحياة المرأة والرجل على حد سواء . اذ يجوز أن يكون المهر خاتما من حديد أو قدحا من تمر أو تعليما لكتاب الله وما شابه ذلك اذاا تراضى المتعاقدان .

فعن عامر بن ربيعة أن امرأة من بني فزارة تزوجت على نعلين فقال رسول الله « أرضيت عن نفسك ومالك بنعلين فقالت : نعم . فأجازه . »

وعن سهل بن سعد أن النبي (ص) جاءته امرأة فقالت : يارسول الله اني وهبت نفسي لك فقامت قياما طويلا . فقام رجل فقال : يا رسول الله ، زوجنيهما ان لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله (ص) : هل عندك من شيء تصدقها اياه ! فقال ماعندي الا ازاري هذا . فقال النبي (ص) : ان أعطيتها ازارك جلست لا ازار لك فالتمس شيئا . فقال : ما أجد شيئا . فقال : التمس ولو خاتما من من حديد . فالتمس فلم يجد شيئا . فقال له النبي (ص) : هل معك من القرآن شيء :

قال : نعم سورة كذا وسورة كذا يسميها . فقال النبي (ص) : قد زوجتكها بما معك من القرآن .

وعن أنس ان أبا طلحة خطب ام سليم فقالت : والله ما مثلك يرد ، ولكنك كافر ، وأنا مسلمة ، ولا يحل لي ان أتزوجك . فان تسلم فذلك مهري ، ولا اسألك غيره ، فكان ذلك مهرها .

وقد زوج سيد اهل المدينة من التابعين سعيد بن المسيب ابنته على درهمين ، ولم ينكر عليه احد ، بل عد ذلك من مناقبه وفضائله . ولا سبيل الى اثبات المقادير الا من جهة صاحب الشرع .

أما من حيث الكثرة فانه لا حد لاكثر المهر ، فعن عمر رضي الله عنه انه نهى وهو على المنبر ان يزاد في الصداق او المهر على اربعمائة درهم ، ثم نزل فاعترضته امرأة منقريش فقالت : اما سمعت الله يقول «وآتيتم احداهن قنطارا» .

فقال : اللهم عفوا . كل الناس افقه من عمر . ثم رجع فركب المنبر فقال : «اني كنت قد نهيتكم ان تزيدوا في صدقاتهن على اربعمائة درهم ، فمن شاء ان يعطي من ماله ما احب» .

وعن عبدالله بن مصعب ان عمر قال : لا تزيدوا في مهور النساء على اربعين اوقية من فضة . فمن زاد اوقية جعلت الزيادة في بيت المال . فقالت امرأة : ما ذاك لك . قال : ولم ؟ فقالت : لان الله تعالى يقول : «وآتيتم احداهن قنطارا» . فقال عمر : امرأة اصابت ، ورجل اخطأ .

كل ذلك يؤكد كره الاسلام المغالاة في المهور ، وكلما كان المهر قليلا كان الزواج مباركا . وان قلة المهر من يمن المرأة .

فعن عائشة رضي الله عنها ان النبي (ص) قال : «ان اعظم النكاح بركة ايسره مؤنة» . وقال (ص) : «يمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها ، وشؤمها غلاء مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها» .

رغم ذلك كله جهل كثيرون او تجاهلوا حكمة الشرع في عدم المغالاة في المهور ، مما ادى الى كثرة الشكوى ، وعانى الناس من ازمة الزواج التي اضرت بالرجال والنساء على السواء . ونتج عنها كثير من الشرور والمفاسد والانحرافات . وكسدت سوق الزواج ، واصبح الحلال ابعد منالا من الحرام . وماذا يكون حال مجتمع يتطلع فيه الى الحرام ؟ وماذا يؤول اليه الحال حين تصبح الثمرة المحرمة هي المقصد والهدف في دوامة التغالي في المهور ، والاشتطاط فيها بلا داع او مبرر غير المنافسة المقيتة المذمومة . ولو فكر اولئك المغالون لادركوا ان عرض ابنتهم وشرفها الذي يقدمونه للرجل بالزواج اثمن من كل مال ، وعلى اولئك ان يضعوا في كفتي الميزان الشرف والمال ويقدروا هم انفسهم النتيجة ويراجعوا حساباتهم التقليدية .

ولكن ماذا عن دفع المهر . اعني تعجيله وتأجيله ؟

يجوز تعجيل المهر — اي المقدم — وتأجيله ، ولكن يستحب تعجيل جزء منه ، فقد روى ابن عباس ان النبي (ص) منع عليا ان يدخل بفاطمة حتى يعطيها شيئا . فقال : ما عندي شيء . فقال : فأين درعك الحطمية ؟ فأعطاه اياها .

مع ذلك اجاز الاسلام دخول المراة قبل ان يقدم لها شيئا من المهر . وكما هو واضح فان ذلك ليس قاعدة عامة يقاس عليها . فقد روى عن عائشة رضي الله عنها انها قالت «امرني رسول الله (ص) ان ادخل امراة على زوجها قبل ان يعطيها شيئا» .

وقد عالج الاسلام زواج الصغيرة بما يتعلق بمهرها ، اذ لا يجوز للاب او ولي الامر ان يزوج ابنته الصغيرة بأقل من مهر مثلها ، ولا يلزمها حكم ابيها في ذلك . فالمهر حق لها ولا حكم لابيها في مالها ، ولكن اباها هو من يقبض صداقها لانه يلي مالها . اما اذا لم يكن لها اب ولا جد فلوليها المالي قبض صداقها ، ولكن لا يتصرف فيه الا باذن من المحكمة المختصة .

واذا قبض الاب المهر بحضرتها اعتبر ذلك اجازة منها بالقبض اذا سكتت ، وتبرا ذمة الزوج ، لان اذنها في قبض صداقها .

وفي البكر البالغة العاقلة لا يقبض الاب صداقها الا باذنها ، اذا كانت رشيدة كالثيب . وقيل : له قبضه بغير اذنها لانها العادة ، ولانها تشبه الصغيرة .

ولكن ما الاحوال التي يسقط فيها نصف المهر او كله عن الزوج ؟

يجب على الزوج نصف المهر اذا طلق زوجته قبل الدخول بها . وكانت الفرقة منه لسبب آخر من ردة او عمل ما يوجب حرمة المصاهرة . قال تعالى : «وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن ، وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا ان يعفون او يعفو الذي بيده عقدة النكاح . وان تعفوا اقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم . ان الله بما تعملون بصير» . (البقرة : ٢٣٧) .

ويسقط المهر كله اذا عملت الزوجة عملا يوجب الفرقة بينهما ، كما اذا ارتدت او عملت شيئا يوجب حرمة المصاهرة .

وهكذا يضع الاسلام الرجل في واحد من موازينها ، هو ميزان المهر ، فمن ارتقت به نفسه ، وسمت مشاعره بتقواه ، وعمل بروح الشرع وجوهره بانصاف ابنته او اخته بتيسير مهرها كان له ذلك عتقا من النار فـ «من عال ثلاث بنات او ثلاث اخوات أو اختين او بنتين فأدبهن واحسن اليهن وزوجهن فله الجنة» .

صدق رسول الله (ص)

المداهنـــــة

قال تعالى : «فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون» . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» .

توحي الآية الكريمة والحديث الشريف الى آفة خطيرة من آفات حياتنا . وهي المداهنة اي اظهار الرضا بما يصدر من الظالم او الفاسق من قول باطل او عمل مكروه .

وهذا كثير في حياتنا حتى اننا لنرى الشخص يلبس وجهين ، يلاقي بهمـــا انسانين متعاديين ، ويصل الدهاء بالمداهن الى اشعار كلا المتعادين بأنه معهما لانهما على حـــق .

بل انه يلاقي كلا منهما بوجه طلق ولسان عذب ينطويان على الضغينة ، وذلك هو عين النفاق .

فالمداهنة جزء من النفاق وعلامة من علاماته اذ ان «آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد اخلف ، واذا اؤتمن خان . وان صام وصلى وزعـــم انه مسلم» . صدق رسول الله .

وهذه الآفة فن باطل لا يتقنه الا الذين تمرسوا هذه الآفات فأضحوا من اهلها . قال رسول الله (ص) : «من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يـــوم القيامة» .

وقال ابن مسعود : «لا يكونن احدكم امعة . قالوا : وما الامعة ؟ قال : الذي يجري مع كل ريح» .

اما ذو اللسانين او الوجهين الذي نراه في حياتنا فهو من يلاقيك بطلاقة وبشاشة يشعرك معها انه صديقك وموضع ثقتك ، واذا به ينقلب بوجهه الآخر الى طرف معاد ، يلاقيه بما لاقاك به من حبور ، حتى ليحس الاخر بأن هذا المداهن موضع سره.

وليس هذا فحسب ، بل ان ذا اللسانين هذا يعمل وسيطا بين المتعاديين المتنافرين ، فينقل بينهما الاخبار التي تزيد في اضرام نار العداوة المستترة في النفوس، في الوقت الذي يشعر كلا منهما انه يوافقه فيما يقول ويفعل .

قال مالك بن دينار : قرأت في التوراة بطلت الامانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين . يهلك الله تعالى كل شفتين مختلفتين .

ومن المداهنة ان يثني انسان على آخر في وجهه ويتملقه ، ويجامله مجاملة نشعر معها انه الصديق المخلص ، ولكن ما ان ينصرف المداهن عنه حتى يطلق لسانه فيه ، مؤلفا ومختلقا ومتزيدا .

قيل لابن عمر رضي الله عنه : انا ندخل على امرائنا فنقول القول ، فاذا خرجنا قلنا غيره . فقال: كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله (ص) .

وهذا من شأنه ان يشعرنا يقينا بأن هذا المداهن انسان لا يوثق به ، لانه فقد في نفسه العزة والاباء ، حتى باتت نفسه تحيا بل تموت في الهوان والمذلة والخضوع. ومن هانت عليه نفسه هانت عليه نفوس الناس .

وتكثر صور المداهنين في مجتمعاتنا ومجالسنا ، حيث نراهم ــ وهذه هي طبيعة حياتهم ــ يلتفتون دائما الى حيث المصلحة والنفع الدنيوي ، ويلتفون حول من يأملون خيره .

ونجد المداهن بوقا يردد ما يقوله فلان من الناس ممن يؤمل خيره ، يؤكد كل كلمة يقولها ، ويؤيد كل حركة تصدر عنه . يمدح اذا مدح ، ويذم ان ذم — هكذا هو ، ريشة تتقاذفها رياح الخضوع والصغار ، حتى انه لا يكاد يتكلم بلسانه الخاص ، بل بلسان غيره .

وما يكاد هذا ينصرف ويأتي آخر مكانه ، حتى يعود المداهن الى سيرته مع الاول ، ولكن الصورة الان تنعكس . فالمذموم اصبح ممدوحا ، والممدوح اضحى مذموما . وهكذا دواليك ، دولاب يدور ، ويدور المداهن معه .

هذا ما نراه في حياتنا ، الناس مع الواقف . والويل كل الويل لهذا الواقف اذا قعد او وقع ، عندها يكثر الشامتون ، وما اكثرهم .

والمداهن شر الناس وابعدهم عن ساحة الله سبحانه ، ذلك لانه باع للشيطان نفسه ، وفقد ثقته بنفسه ، حتى بات رخيصا يرتمي في طريق هذا او طريق ذاك عله يكسب صاحبا مؤقتا بتوقيت مداهنته له فحسب .

وهذا المتلون شخص مجبول على الكذب وخلف الوعد ، فهو سريع في اطلاق وعوده الخرافية التي تأبى الانجاز لضخامتها .

أما السبب في هذا فهو يقينه في عدم انجازها ، واذا سئل عن سبب خلفه الوعد ،افتعل الف سبب وتعلة . موحيا لك في الوقت ذاته انه صادق فيما يدعي .

قال صلى الله عليه وسلم : «ابغض خليقة الله الى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون الذين يكثرون البغضاء لاخوانهم في صدورهم ، فاذا لقوهم تملقوا لهم ، والذين اذا دعوا الى الله ورسوله كانوا بطاء واذا دعوا الى الشيطان ومره كانوا سراعا» .

وقليل من الناس من يقف في وجه المداهن ، ويرده عما هو فيه . اذ ان هذا يتطلب الجراة التي تكون ناقوسا يدق فوق رأسه فيردعه عما هو فيه من تقليب الوجوه وتغيير اقنعتها مع كل حالة .

وهذا ينتهي عادة بالثورة العارمة يفتعلها المداهن ليثير بها الرماد في عيون الحاضرين ، منذرا بالقطيعة ، ومهددا بالويل والثبور عجزا وقصورا .

كتب طاهر بن الحسين الى ابنه عبدالله بن طاهر : «وليكن اكرم دخلائك وخاصتك عليك من اذا راى عيبا لم تمنعه هيبتك من انهاء ذلك اليك في ستر ، واعلامك بما فيه من النقص ، فان اولئك انصح اوليائك ومظاهريك لك» .

وابتنى الخليفة عبدالرحمن الناصر القبيبة بقصر الزهراء ، واتخذ لسطحها قراميد من ذهب وفضة . وجلس فيها اثر اتمامها ، وقال لمن حضر مفتخرا : هل رأيتم او سمعتم من فعل هذا من قبلي ؟ فقالوا : انك لاوحد في شأنك كله .

ولكن القاضي منذر بن سعد وعظه وعظا بليغا، وتلا عليه قوله تعالى : «ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون» (الزخرف : ٣٣) .

فأطرق الناصر مليا ثم اقبل على منذر وقال له : جازاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيرا ، وعن الدين والمسلمين اجل جزائه . فالذي قلت هو الحق وقام من مجلسه ونقض سقف القبيبة ، واعاد قرميدها ترابا .

أين نحن من ذاك السلف الصالح ؟ بعد العهد ، وطال الامد . وباتت النفوس ترتع في ظلام الحياة المادية ، تسوقها الغرائز والموبقات . فاذا بها نفوس تتشاحن وقلوب تتنافر .

وفي غمرة هذا كله تعيش الفئة القليلة التي عرفت طريق الله ، اولاء هم اهل الله ، حيث لا تغريهم قشور الحياة ، فارتفعوا عن سفاسفها ، وعفوا عن محارمها فأكرمهم الله ، سلام النفس وطمأنينة الفؤاد اولئك هم حزب الله «الا ان حزب الله هم المفلحون» .

صدق الله العظيم

المعاملة بالمثل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «زر غبا تزدد حبا» .

الحديث الشريف هو البداية التي انطلق منها في ملمح دقيق من ملامح الانسان في علاقة مع نفسه من خلال مجتمعه تفاعلا ، وتعاملا ، وتعايشا . وبمقدار احساس المرء بنفسه ، بقيمتها ، بعزتها ، بكرامتها ، يكون تعامله مع غيره ، فمن مقومات نفسه اولا ينطلق في المجتمع الصغير والكبير على حد سواء ، ما دامت القاعدة التي ينطلق منها في حياته وسلوكه واحدة .

ولكل انسان خلفية نفسية يبرزها ويجليها سلوكه في الحياة ، ويجسدها تفاعله مع من حوله ، اما تفاعلا كليا ، بما ينجم عنه من علاث ، او تفاعلا يكون اساسه «شعرة معاوية» التي لا تنقطع بفعل الاخذ والرد حسبما يقتضيه الحال . والعاقل من يعرف متى يشد الشعرة بينه وبين الناس ، ويدرك متى عليه ان يتركها او يرخيها، كل ذلك حتى لا تنقطع ، ويكون صاحبها الخاسر دائما ، فالانسان خلق ملولا ، وما يرضيه في لحظة من اللحظات قد لا يرضيه في لحظات اخرى ، والعاقل الحكيم من يدرك متى يقترب من الناس ، ومتى يبتعد عنهم ، حتى لا تهون نفسه على غيره ، فان النفس تهون عند الناس متى هانت عند صاحبها . وبمقدار معرفة الانسان قيمة نفسه يقف الناس منه ، فاما احترام او لا احترام .

وتكريم الانسان نفسه لا يقرره سواه ، فهو الذي يعرف قدر نفسه ، «ورحم الله امرأ عرف، قدر نفسه» ، وهو نفسه الذي يعلم عن نفسه ما لا يعلمه احد . وهو العليم بمقومات نفسه ومكوناتها ، ومنهافأي حكم يصدر عن انسان بشأن آخر فهو حكم جائر لا روية فيه .

والانسان كما هو معروف بخلفية وواجهة ، بمعنى ان له جوهرا ومظهرا ، والمؤمن من تكون واجهته انعكاسا لخلفيته ، لنفسه ، لمشاعره ، لاحاسيسه ، لخبرته وثقافته ، اما اذا كانت تلك الواجهة مخالفة لذلك الجوهر فان صاحبها يدخل في عوالم اخرى من النفاق والرياء ، وهذا ليس من الاحترام في شيء .

اقول : وليس من يقرر قيمة النفس غير صاحبها . من هنا كان اختلاف الناس في الحكم على انسان ما ، فأي حكم يصدر في حق انسان هو حكم جائر ، فمن الناس من يخدع بالمظاهر والشكليات ، وانطلاقا من هذا يأخذون في القاء الاحكام التي لا تنبعث من تفكير عميق ، وتجربة نافذة ، فنسمعهم يقولون مثلا : فلان عظيم ، فلان جواد ، وفلان صادق ومخلص . او فلان كاذب او منافق او وهكذا . فاذا سألت : وما الدافع لذلك الحكم قالوا : شكله يدل على ذلك ، او حديثه ينم عن ذلك . وكأن الانسان بكل ما في اعماقه ، بكل ما في صدره ، بكل ما في راسه آلة خرساء يحكم عليها بأنها قديمة او جديدة وينتهي الامر . ونسوا ان تناسوا ان الانسان بمخبره لا مظهره ، والمرء بأصغريه قلبه ولسانه . فهل من اليسير بعد ذلك الحكم على القلب واللسان في لقاء واحد ؟ وهل من السهل ان ترسم صورة الانسان بكل اعماقه في جلسة واحدة ؟ .

ومن الذي يقرر صفة الانسان غير الانسان نفسه ؟ فهو في كل لحظة يغترف من اعماقه فيظهره سلوكا ، ودخيلة نفسه هي التي تتحكم في خطاه ، وحصيلة ايامه بحلوها ومرها هي التي توجهه .

ومع ذلك ، لن اقول ما دام الامر مرهونا بمكونات حياة الانسان وظروفه ، فلم نحاسبه على ما يفعل اذن ؟

كل ذلك ليس الا اضواء كاشفة لاعماقه من خلال دستورنا ومنهجنا الشامل الكامل ، دستور الخير ، ففيه هداية بصائرنا قبل ابصارنا ، وفيه سعادة حياتنا ، وفيه الخير كله . والخير هو ما يسعد الانسان السعادة الباقية على نفسه في عزتها وعزها . واول ما يبقي على النفس جلالها او ينفيه عنها مخالطة الناس ، واحصر

هذه المخالطة في زيارتهم ، زيارة من تألف هذه النفس . حتى اولئك الذين تالفهم النفس ، فان لزيارتهم آدابا واصولا ، حتى تبقي على الانسان مهابته وكرامته . قال رسول الله (ص) «زر غبا تزدد حبا» . وغبا تعني الزيارة البعيدة غير المتتابعة . وقد قال في هذا المعنى كثيرون :

أقلل زيارتك الصديق تكون كالثوب استجده
وامل شيء لامريء ان لا يزال يراك عنده

وقال بعض المحدثين :

اذا شئت ان تقلى فزر متتابعا
وان شئت ان تزداد حبا فزر غبا

والرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف يجسد مشاعر الانسان ، ومزاجه ، الملول المتقلب ، وما اسرع ما يتقلب قلب الانسان . قال تعالى : «ونقلب افئدتهم وابصارهم» . .وما اشد ما يتلون شعوره وحسه في ذلك القلب الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك سره في تقلبه فيحلف به ويقول : «لا ومقلب القلوب» . وكان (ص) يقول : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . قالوا : اوتخاف يا رسول الله ؟ قال : وما يؤمنني والقلب بين اصبعين من اصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء» . ويقول (ص) : «مثل القلب في تقلبه كالقدر اذا استجمعت غليانا» .

كل ذلك يؤكد التقلب وعدم الثبات في قلب الانسان ، ويؤكد أيضا ولعه بالجديد وحب الجديد ، التجديد في المأكل ، في الملبس ، في علاقاته الكثيرة السريعة المتلونة مع من حوله . والعاقل من يدرك ذلك كله فيتهيأ له ، والعاقل من يعرف متى يدنو من الناس ، ومتى يبتعد عنهم . ويعرف متى يزورالناس ومتىيمتنع عن زيارتهم فان تتابع الزيارات تجرىء على الانسان من هم دونه «وان اجرأ الناس على الاسد اكثرهم له رؤية» . وهي في هذا تقليل من قيمة نفسه التي لا يعرفها سواه ، وحط من قدره الذي يقف عنده . والا فما مفهوم قوله تعالى : «ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم» . (الانعام : ١٦٥) .

فهل الدرجات بالمال ؟ او هي بالمظهر ؟ انها اعظم من ذلك كله ، فالدرجات — كما اعتقد — في امور صادرة من جوهر الانسان في قراره واعماقه . انها درجات الايمان والفهم والادراك والعمل بما شرع الله ، والتسلح بتقواه سبحانه ، في سلوكه وفعله «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات» . (المجادلة : ١١) . والا فكيف يحفظ على العالم هيبته وتسمع حكمته ؟ وهو من قال فيهم سبحانه : «انما يخشى الله من عباده العلماء» . وهذا يؤكد ما للعالم من اثر عظيم في الارشاد والتوجيه ، ومنه يندفع هذا العالم دفعا في طريق تحفظ عليه كرامته ، يقول سفيان ابن عيينة : «لا تعفروا الاقدام الا الى اقدارها» . والا كان حاله كمن قيل فيهم «ازهد الناس في عالم اهله» .

واعظم الادواء ان يرغم انسان ما على ان يتناسى علمه ، ويسف الى درجة دون التي يقف عندها في نفسه مجاراة لمن يخالط او يزور ، فقد يكون من يخالطهم او يزورهم متتابعا لا يقدرون قيمة ما في صدره من علم ، وما في عقله من ذخيرة ، فيترتب على ذلك بالضرورة الا ينظروا اليه الا بمنظار عقولهم ، ويعاملونه بمقياس نفوسهم ومعدهم ، فيصبح مع تتابع الزيارات واحدا منهم ، بعيدا عن تكريم العقل ، بعيدا عن تعظيم تقوى القلب ، وامر من ذلك كله انهم يتحولون عنه الى سواه ، ويجدون في تكريم الزائر الجديد ، والالتفاف حوله ، مغفلين تماما ذلك الذي تعود على الاكثار من زيارتهم ، حتى يضحي لا وجود له في مجلسهم . فأية مرارة يصاب بها ذلك الانسان ؟ واية اهانة يتجرعها من اولئك الذين توهم انه سيكرمهم بزياراته ، ويرتقي بهم في احاديثه اليهم ؟ وماذا يجد ذلك الانسان غير الفراغ والضياع ، حيث لم يعد يجديه غير الفرار الى صومعة العلم ومحراب الفكر . فهناك يجد نفسه مهيبة عزيزة ، عزة الغيث اذا هو امسك .

عليك باغباب الزيارة انها
اذا كثرت كانت الى الهجر مسلكا
فاني رأيت الغيث يسأم دائبا
ويسأل بالايدي اذا هو امسكا

دور رعاية الايتام

قال صلى الله عليه وسلم : «من مسح براس يتيم لا يمسحها الا الله كان له بكل شعرة حسنة» .

كم تألمت وسعدت ، كم حزنت وفرحت .. في لحظة واحدة ، اذ لم تمر في حياتي لحظة جمعت بين الالم وضده كما حدث في تلك اللحظة التي شهدت فيها التحقيق التلفزيوني المصور الذي قام به مندوب التلفزيون الاردني في دار رعاية الاحداث مساء الجمعة الموافق ١٩٧٨/٢/٣ .

في تلك اللحظة او اللحظات عدت بالذاكرة الى الماضي الدافع الى المستقبل ، الى دار تقف بشموخ في احد احياء القدس الجديدة منذ عام ١٩٤٨ ، وهذه الدار هي «دار الطفل العربي» ، وقد بدات منذ اوائل الستينات تخرج الى الحياة اعضاء نافعين في المجتمع ، وكلهم ممن حرموا طفولهم السعيدة ، تحت اي ظرف من ظروف الحياة القاسية القاهرة .

ولست هنا في صدد الحديث عن تلك الدار العظيمة ، ولكن اود ان ادخل من خلالها الى موضوعي هنا ، بعد ان امس مسا رقيقا رسالة تلك الدار في شخص صاحبة الدار ، فقد اعطت ولا تزال تعطي بناتها في الدار الحب والعطف ، ليس حب الوالدين طبعا ، ولكنه حب يوصف في معيار الحياة بأنه بلسم يمنح القوة والثقة في مواجهة مصاعب الحياة . وهذا في تصوري كاف تماما لمن تكتب عليه الحياة في مثل تلك الذور . وفي البداية والنهاية تخرج ويتخرج في تلك الدار الكثيرات ، ومعظمهن بفضله سبحانه كتب الله لهن التوفيق .

من هنا اقول ، وليس بالحب وحده يحيا الانسان ، فهناك الضروريات لدعـــم الحب ، وهذه هي : المأكل والملبس والدفء والمنامة المريحة التي تخفف من قســـوة خيالات الليل ومرارة احلامه ، والتي تحمل في كثير منها ومضات الحياة المرتقبة .

ولن اتحدث ايضا عن دار رعاية الاحداث بالذات ،بل اتحدث عن تلك الدور عامة ، عن الاطفال فيها ، عن كل طفل فقد احد جناحيه في الحياة ، او جناحيـــه كليهمـــا .

وكلنا يعرف ، وكلنا يدرك ويحس بما يؤول اليه الحال آنئذ . ريشة تتلاعب بها الرياح في كل اتجاه ، يجسمه ضياع وتشرد وحرمان وفراغ ومذلة . ولو استطاع ذلك الطفل ان يعبر عن مكنون حاله لقال : انه بئر لا قرار له يهوي اليها كل يوم بل كل لحظة من حياته شيئا فشيئا ، دون ان يشده الى خارج البئر شيء او انسان ، او قال انها اي الحياة غول هائل رهيب ، ضحاياه كلهم من الضعفاء ، وعلى رأسهم اطفال تكسرت اجنحتهم قبل ان يطيروا .

انظروا الان الى وجوه اطفالكم ، الى عيونهم البريئة ، ويقيني انكم ستضمونهم الى صدوركم بشدة هلعا وفرقا من مجرد التفكير ، اي تفكير يشد الاعصاب ،ويشل التفكير ولو لطرفة عين .

واعود الان الى هذه الدور ، فأقول : استنادا الى رسالة الدار التي بدأت بها حديثي فان العنوان الذي ينبغي ان تعرف به كل الدور هو الرحمة والرحمة والرحمة. وهذه اللفظة تضم في ثناياها كل ما يحتاجه الطفل الذي تميزه ظروفه القاسية .

والرحمة مشتقة من الرحمن الرحيم ، وهذا يعني العطف والرقة واللطف والكرم والمنة والحلم . قال (ص) : «والذي نفسي بيده لا يضع الرحمة الا على رحيم ، قلنا: يا رسول الله ، كلنا رحيم . قال : ليس الرحيم الذي يرحم نفسه واهله خاصة ، ولكن الرحيم الذي يرحم المسلمين» . وقال (ص) : «من لا يرحم لا يرحم ، ومن لا يغفر لا يغفر له» . وقال (ص) : «قال الله عز وجل : ان كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقـــي» .

فالرحمة كما يفهمها الطفل في هذا الدور هي الامان الذي يعطاه عند اول خطوة يخطوها في الدار التي كتبت عليه ، والامان هو جرعة طمأنينة تبعد عنه الخوف والقلق ولو للحظة دخوله الدار فحسب .

والرحمة في مفهوم ذلك الطفل كذلك هي اللقمة يأكلها بما يسد جوع معدته الصغيرة ، فشبعه يعني تناسي همه وضياعه في عالم مجهول . والالم كل الالم اذا بات هذا الطفل طاويا ، معنى ذلك ان تراوده الخيالات التي تجسم امامه الخوف والرهبة والفزع والفراغ اللامتناهي الذي يلتهم كل شيء .

والرحمة في منطق الطفل تعني الدفء خاصة ، وبمعنى ادق هي الملابس التي تدفيء جسمه الصغير الطري ، مما يقيه شرور البرد التي تضيق الحياة في وجهه ، وتحيلها الى سرداب مخيف طويل مظلم لا نهاية له ، ويزيد من شعوره هذا حرمانه العطف الطبيعي والحنان الفطري الذي اوجده الله تعالى في جناحي الطفل .

والرحمة فوق ذلك في حس الطفل وشعوره ان يبعد عنه المرض . وهذا يعكس عنده في الاعماق اهتمام من حوله به . واثارة الطفل انتباه من حوله واهتمامهم امر بديهي . فاذا وجد مثل ذلك الاهتمام ــ حتى ان كان في الظاهر فحسب ــ فان الطفل يتمكن به من مقاومة ما يلم به ليشارك اقرانه لعبهم ومرحهم . واللعب والمرح علامة من علامات الصحة والعافية في الطفولة ، اية طفولة ، يستوي فيها الطفولة السعيدة او المعذبة .

واللعب الى جانب ذلك يعني حلبة المنافسة الاولى التي يدخلها الطفل ، ومنها ينطلق الى المنافسة المضنية في ملعب الحياة الفسيح الرهيب ، حيث لا رحمة الا رحمته سبحانه وتعالى .

فالرحمة قبل ذلك وبعد ذلك هي الحماية والامان ، وماذا يحتاج الطفل غير الحماية والامان ؟

وهي ايضا طمأنينة الجوارح وسلام النفس . ومن الطفل الذي يستغني عن طمأنينة الجوارح وسلام النفس ؟ ليكون طفلا معافى القلب والحس والعقل والجسم، فيرتد هذا عليه في حياته عزة وعزيمة وقوة وصلابة في مجالدة الايام ، ومقارعة لياليها، دون ان يهن او يضعف او يذل . بل انه يزداد تماسكا كلما قست عليه الايام ، لانه تخرج فيمدرسة الايام ، واتقن مناهجها التي لقنها منذ الصغر ، فتتفجر بهذا طاقاته الجبارة الكامنة في اعماقه ، والتي اتخذت التحدي شعارا لها .

وعود على بدء الى هذه الدور المؤمنة بحق الطفولة المقدس في الحياة الامنة العزيزة الكريمة . فالله سبحانه قد اعد الجزاء الاوفى للقائمين عليها والمساهمين فيها بأي قدر من مالهم ، وبأية قدرة من قدراتهم قال سبحانه ، «من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون». (النحل : ٩٧) . وقال (ص) : «خير البيوت بيت فيه يتيم يحسن اليه» . فكيف الحال ببيوت اوقفت رسالتها على خدمة الايتام ؟.

ويستطيع كل انسان ان يخدم اليتيم ماديا او ادبيا ، فان المادة تحفظ عليه كيانه في العيش . اما الخدمة الادبية فهي القوة النفسية التي تتولد عن الرحمة التي يمد المؤمن قلبه ويده بها الى اليتيم ، وهذه القوة هي الركيزة التي يقوم عليها كيانه المادي .

وأبسط الوان الخدمة الادبية ما ذكره رسول الله (ص) : «من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يده نور يوم القيامة» .

ومع ذلك ، فلا اتصور انسانا ــ مهما كانت قدرته المالية ــ لا يستطيع ان يمد يد الرحمة الى اولئك المعذبة قلوبهم ، الموزعة مشاعرهم ، الدقيقة الرقيقة احاسيسهم . ومن يحدد هذه الرحمة عيون اطفالنا ، اذ يكفي ان ينظر كل منا في عيون اطفاله ، فتحدد الرحمة عيونهم وقلوبهم الصغيرة البيضاء «وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا واعظم اجرا» . (المزمل : ٢٠) .

وبهذه الرحمة التي تجود بها نفسه من خلال عيون اطفاله يأمن من فزع اليوم الاكبر ، يوم تذهل كل مرضعة عما ارضعت ، ويوم يفر المرء من اخيه ، وامه وابيه، وصاحبته وبنيه «من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون» . (النمل : ٨٩) .

وما يشفع للانسان في ذلك اليوم ما قدم من خير في حياته الدنيا ، مهما كان عمله الخير صغيرا «يا بني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة او في السموات او في الارض يأت بها الله . ان الله لطيف خبير» . (لقمان : ١٦) .

واحباء الله تعالى هم المؤمنون المتقون الذين يسارعون في الخيرات السابقون اليها «اولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون» . (المؤمنون : ٦١) .

صدق الله العظيم

النميمـــة

قال تعالى : «ويل لكل همزة لمزة» والهمزة النمام . وقال سبحانه : «هماز مشاء بنميـــم» .

والنميمة هي احدى آفات اللسان ، بل انها اخطر هذه الآفات ، بما تزرع في القلوب من احقاد ، وما تثير في النفوس من ضغائن ، بحيث تصبح الكلمة بل الحرف سببا في اشعال نار لا تبقي ولا تذر بين الافراد والجماعات . فيبدأ النمام بكلمة يتفنن في نقلها ، بما يضفيه عليها من خبث نفسه ، وحسد قلبه ، وحقد مشاعره . فلا تلبث هذه الكلمة ان تصبح كلمات جديدة لا عهد لها بالاصل الذي بدأت منه . فيدور النمام بهذه الكلمات بين الناس ، ويسعى بغيرهـــا بينهم ، بما يسعفه به خيالـــه المريض ،وخبثه وكذبه وغدره وغيبته ، فان النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق. وهي أثافي الذل .

وقد تعود النمام على النميمة حتى اضحت الدم الذي يسري في عروقـــه ، فان ما يؤلم النمام ان يبقى الناس في امان ، وان ما يضني النمام ويضايقه ان يســـود الصفاء ، وان ما يؤرق النمام ان يهدأ الناس من حوله بلا قيل او قال ، فينتفض ليثير القلوب وينفرها بحقده وحسده ونفاقه

ان القلوب اذا تنافـــر ودهـــا

مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

وفي الوقت ذاته يجهل ذلك النمام او يتجاهل انه بنميمته وحسده يأكل نفسه ، ويحرق قلبـــه .

اصبـر على كيـد الحسـود   فـان صبـرك قاتلـه
النـار تأكـل بعضهـا   ان لـم تجـد مـا تأكلـه

والنمام مبغض الى الله سبحانه ، ومحرم عليه الجنة «لا يدخل الجنة نمام» . كما روى عن رسول الله (ص) : «... وان ابغضكم الى الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الاخوان ، الملتمسون للبرآء العثرات» .

والنمام لا يكون صادقا ابدا ، فالنميمة تتعارض مع كل صفة محمودة واولها الصدق . روي ان سليمان بن عبدالملك كان جالسا وعنده الزهري ، فجاءه رجل فقال له سليمان : بلغني انك وقعت في وقلت كذا وكذا . فقال الرجل : ما فعلت ولا قلت ؟ فقال سليمان : ان الذي اخبرني صادق . فقال له الزهري : لا يكون النمام صادقا . فقال سليمان صدقت . ثم قال للرجل اذهب بسلام .

والنميمة اخت الغيبة وشريكتها في هدم كيان المجتمع ، بل ان النميمة اكبر خطرا ، وابعد اثرا من الغيبة ، فهي سبب كل قطيعة بين الافراد ، فما اختصمت الاخوة ، ولا تقطعت الارحام ، ولا تفرقت الاصدقاء ، ولا تنافرت الجيران ، ولا تباغضت الازواج الا بالنميمة . فان النمام قد اوتي حظا من الغباء وانعدام الضمير ، بحيث اخذ يبث قيله وقاله هنا وهناك بين هذا وذاك ، وبين هذي وتلك . ماتت نفسه اللوامة فبات يسعى بين الناس بالشر والفساد ، يشجعه على ذلك تشنيف من حوله آذانهم لسماعه ، ويأخذون في شحذ خياله بأساليب الاثارة المتعددة الالوان والصور ، فيهيئون له الجلسة المريحة التي تشعره وهما انه مالك زمام الامور وقيادها — ما دام بعيدا عمن ينم عنه — فيسهب ويطنب ، ويعيد ويزيد ، ويبرق ويرعد ، ويتحمس تارة ، ويفتر طورا ، كل ذلك بمقدار ما يصيبه من شحنات اثارة السامعين. وهؤلاء السامعون نسوا او تناسوا ان السامع شريك القائل ، بل هو اخطر من القائل نفسه ، اذ ان سماعهم وتشجيعهم يشجع النمام على المضي في طريق الضلال «سماعون للكذب اكالون للسحت» . وان استثارة السامع للنمام مردودة عليه ، فان من ينم اليك ينم عليك ، وان من يؤلف ويفتري على غيره لك يفتري عليك ... وهكذا .

لا تقبلــن نميمــة بلغتهــــا وتحفظــن من الــذي انباكهــا

ان الذي نباك عنــه نميمــة سيدب عنك بمثلهــا قد حاكها

ولكن ما جزاء النمام وما عقابه ؟ وكيف يؤدب ؟

اما تأديبه الادبي الموجع فهو عدم سماعه وتقريعه . فهو كاذب فاسق مردود الشهادة «يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ ، فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» .

ويؤدب ايضا بتحقيره واشعاره بهوانه ، اذ لو كان النمام مخلصا لمن ينم اليهم لدافع عنهم في غيبتهم ، ولحمى ظهرهم من ان يصاب بأذى ، ولكن داءه نابع من ضمير ميت يجعله بلا هدف او هوية ، فنراه مبعثر الخاطر ، مشتت الاهواء ، لا يثبت في راي على حال ، اذ لا راي له ، ولا يقر له قرار ، فالنميمة لا محل لها ولا استقرار.

قال رجل لعمرو بن عبيد : ان الاسواري ما يزال يذكرك في قصصه بشر ، فقال له عمرو : يا هذا ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت الينا حديثه ، ولا اديت حقي حين اعلمتني عن اخي ما اكره . ولكن اعلمه ان الموت يعمنا ،والقبر يضمنا ، والقيامة تجمعنا ، والله تعالى يحكم بيننا ، وهو خير الحاكمين .

فالنميمة آفة تضع بصاحبها ، وتذله وتحقره ، قيل لمحمد بن كعب القرظي : اي خصال المؤمن اوضع له فقال : كثرة الكلام ، وافشاء السر ، وقبول قول كل احد .
اما مذلة الخــزي التي تلحق النمــام فهي مذلة اليتيــم ، بل فوق مذلــة اليتيم . فهي مذلة تفقده كل شعور بالامان في رحاب الجماعة والمجتمع والافراد .
قال لقمان لابنه : «.. واحفظ اخوانك وصل اقاربك ، وآمنهم من قبول قول ساع او سماع باغ يريد فسادك ، ويروم خداعك . وليكن اخوانك من اذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك .

ويقال : ان رجلا اتبع حكيما سبعمائة فرسخ في سبع كلمات . فلما قدم عليه قال : اني جئتك للذي آتاك الله تعالى من العلم . اخبرني عن السماء وما اثقــل

منها ؟ وعن الارض وما اوسع منها ؟ وعن الصخر وما اقسى منه ؟ وعن النار وما احر منها ؟ وعن الزمهرير وما ابرد منه ؟ وعن البحر وما اغنى منه ؟ وعن اليتيم وما اذل منه ؟ فقال له الحكيم : البهتان على البريء اثقل من السموات . والحق اوسع من الارض . والقلب القانع اغنى من البحر . والحرص والحسد احر من النار . والحاجة الى القريب اذا لم تنجح ابرد من الزمهرير . وقلب الكافر اقسى من الحجر. والنمام اذا بان امره اذل من اليتيم .

وما اكثر ما ينكشف امر النمام ، حيث يصبح ثوبا خلقا لا يلبث ان يلقى بعيدا ، وحيث يلفظ لفظ النواة حقارة ومذلة ومهانة . فان «من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة» .

قل خيراً أو فاسكت

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا او ليسكت» .

يعتقد الكثيرون ان اسهل الامور على نفس الانسان هو الحديث ، ويعبرون عن ذلك بمختلف الطرق ، فمن قائل ان الكلام بلا ثمن فلم لا نتحدث ؟ ومن قائل ان الحديث لا يتعب ، فلم لا نكثر منه ؟ وهكذا دون رابط او حساب . فمثلا يسأل احدهم آخر سؤالا ، فيأخذ يلوك لسانه بالجواب بلا هوادة او توقف ، متنقلا من حديث الى اخر دون ان ينتهي جواب السؤال وسبب ذلك الانسجام مع نفسه في الحديث ، حتى ان كان ذلك الانسجام الذاتي على حساب الآخرين .

ويمدح انسان آخر فيبدأ في الاسهاب والاطناب في المدح ، ملونا حديثه بشتى الالوان ، فاذا سئل عن سر ذلك اجاب : وهل الحديث بثمن ، فلاتحدث ..

عن مطرف بن عبدالله عن ابيه : قدمت على رسول الله (ص) في رهط من بني عامر ، فقالوا : انت والدنا ، وانت افضلنا علينا فضلا ، وانت اطولنا علينا طولا ، وانت الجفنة الغراء ، وانت انت فقال : «قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان» . اشارة الى ان اللسان اذا اطنب بالثناء ولو بالصدق ، فيخشى ان يستهويه الشيطان الى الزيادة المستغنى عنها .

وفي هذه الزيادة المستغنى عنها قال رسول الله (ص) : «طوبى لمن امسك الفضل من لسانه ، وانفق الفضل من ماله» .

ويجهل الكثيرون او يتجاهلون ان الحديث بثمن ، بل انه اثمن الاشياء فان ما يستعبد الانسان هو الكلمة اذا صدرت عنه ، وهو يستعبدها اذا احتفظ بها ، او وزنها قبل ان يتحدث بها .

وقد قيل الكثير في الحديث وادبه ،ولا بد للمتحدث من مستمع ، فقيل في ادب الاستماع . «راس الادب كله حسن الفهم والتفهم والاصغاء للمتكلم» . فكما ان الحديث فن من الفنون ، فان الاستماع توام هذا الفن وصنوه ، بل ان الاستماع ابلغ اهمية اذا ما قسناه في معيار السنتنا في مجتمعاتنا ، فبينما يكون احدنا في مجلس او ما يسمى في عرفنا مجلسا ، اذ بهذا المجلس ينقلب الى سوق شعبي ينادي كل بائع فيه على بضاعته ويروجها ، وهكذا كل مجلس ، يبدأ باردا ، بمعنى ان فيه حديثا واستماعا ، واذا بالمجلس يسخن شيئا فشيئا ، اي لا استماع ولا مستمعون بل حدث وحديث من كل صوب وفي كل اتجاه ، فيصيبك دوار وانت تجاهد كي تلتقط كلمة مفيدة تحلف معها انك شهدت مجلسا افادك ولكن الحمد لله ، ولا يحمد على مكروه سواه. فقد استحالت المجالس الى متحدثين يتحدثون ولا يسمعهم سواهم .

ولا اتصور ان سائلا سيسأل عن ماهية الاحاديث التي تدور في المجالس ، فان الغبي بغبائه يدرك ذلك . اذ يشبع الجالسون من اكل لحم الميتة فيها ، ويتعب المتحدثون من تبديل اثوابهم التي تعكس نفسياتهم ، فتارة يلبسون ثوب الحمل حتى يسهل عليهم كشف الاسرار واستكشاف خباياها ، وطورا يلبسون ثوب المستأسد اذا ما اصابتهم شرارة من شرار الجالسين . فمثل تلك المجالس او اكثرها لا تخلو من قذف الحمم في معارك ساخنة او باردة تسببها كلمة او اشارة وهكذا ..

اقول : والاستماع هو صنو الحديث ، وادبه يؤلف بين القلوب المتنافسرة . وذلك الادب هو ان يقبل المستمع على المتحدث بوجهه وعينيه . فان ذلك مما يشعر المتحدث بأهمية حديثه ، ويدفعه الى اتمام الحديث بشغف مصدره حسن تفهم المستمع حديثه .

اما اذا تشاغل المستمع في اثناء الحديث ، فان على المتحدث ان يقطع حديثه وينهيه ليحرم المستمع من فائدته . قال الحسن البصري «حدثوا الناس ما اقبلوا

عليكــم بوجوههم» . وقال ابو عباد الكاتب «اذا انكر المتكلم عين السامع فليسأله عن مقاطع حديثه والسبب الذي اجرى ذلك له . فان وجده يقف على الحــق اتم له الحديث ، والا قطعه عنه ، وحرمه مؤانسته ،وعرفه ما في سوء استماع عن عدم المروءة والحرمان للفائدة» .

ومما يثير العجب في هذه المجالس استحالتها الى شبكة خطوط سلكية ولاسلكية. فلا يلبث احدهم ان يبدأ الحديث حتى تدخل عليه اشارة لاسلكية عاجلة فتقطع حديثه، وتتصدى لتلك الاشارة العاجلة اشارة اعجل منها تقتحم الخط ، واشارة ثالثــة ورابعة وهكذا .. وبينما يتحدث احدهم الى فلان حديثا خاصا اذا به يلتفت ويرد على غيره ثم يعود ليتم حديثه ، وكأن اذنيه قد سلطتا على التقاط الاشارات الشاردة. قال الحكماء «من حسن الادب ان لا تغالب احدا على كلامه ، واذا سئل غيرك فلا تجب عنه ، واذا حدث بحديث فلا تنازعه اياه ، ولا تقتحم عليه فيه ، ولا تره انــك تعلمه . واذا كلمت صاحبك فأخذتهحجتك فحسن مخرج ذلك عليه ، ولا تظهر الظفر به ،وتعلم حسن الاستماع ، كما تتعلم حسن الكلام» .

وفي تلك المجالس يأخذ الحماس الجالسين في فورة تحدثهم واستماع انفسهم ، فيلقى الكلام على عواهنه ، وتوزع الوعود ، وتعظم الامال وهما . الم نقل ان الحديث بلا ثمن ؟ اما اذا هدأت الانفاس وهجعت النفوس نسوا كل ما قد قالوا . وكيف لا ينسون والاحاديث والوعود بلا اساس او علة . ولم يكن ذلك الا للاستهدك الوقتي ، ولملء فراغ المجلس الذي تهدر فيه قوى نفسية بلا حساب ، فيخرج اصحابها لاهثين نادمين على ما فرطوا من قول ، متمنين لو يستطيعون اعادة الكلام الى قرابه ، ولكن الكلمة التي تخرج لا ترد . وقد قيل «الزم السكوت فان فيه السلامة ، وتجنب الكلام الفارغ فان فيه الندامة» .

وقال بعضهم لابنه : يا بني تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الحديــث فاحذر ان تسرع في القول فيما تحب عنه الرجوع ، بالفعل ، حتى يعلم الناس انك على فعل ما لم تقل اقرب منك الى قول ما لم تفعل» .

اجتمع في بعض الزمان ملوك من الصين والهند وفارس والروم ، وقالوا : ينبغي ان يتكلم كل واحد منا بكلمة تدون عنه على غابر الدهر . فقال ملك الصين : انا على رد ما لم اقل اقدر مني علىرد ما قلت .

وقال ملك الهند : عجبت لمن يتكلم بالكلمة ان كانت له لم تنفعه ، وان كانت عليه اوهنته .

وقال ملك فارس : اذا تكلمت بالكلمة ملكتني ، واذا لم اتكلم بها ملكتها ..

وقال ملك الروم : لم اندم قط على ما لم اقل ، ولقد ندمت على ما قلت كثيرا .

ومن حسن الادب في الاستماع ان يعطى المتحدث فرصة ليتم حديثه ، وامهاله في ذلك دون مقاطعة لحديثه ، وعدم القفز الى الجواب قبل اتمام الحديث ، فان ذلك يعني عدم رضى المستمع عن الحديث ، وهذا يزرع النفور في القلوب ، ويشعر المتحدث بقصوره في الحديث ، وعجزه عن التعبير . وقالوا «من حسن الاستماع امهال المتكلم حتى يقضي حديثه ، وقلة التلفت الى الجواب والاقبال بالوجه والنظر الى المتكلم والوعي لما يقول» .

ومن سوء ادب الاستماع مجاذبة المتكلم الكلام ، وهو يكلم صاحبه ليكون هو المتكلم ، او يتمنى ان يكون صاحبه قد فرغ وانصت له . فاذا انصت لم يحسن الكلام . وحال هذا قد قيل فيه «رحم الله عبدا تكلم فغنم او سكت فسلم» صدق رسول الله .

أما حين يجهل ادب الحديث والاستماع فهناك البديل عنهما ، انه الصمت ، وهو اشق فنون التعبير وابلغها ،ولكن قليل من يتقنه ، وقليل من يفعله .

والصمت للعالم زين وحلية ، وهو للجاهل تستر لجهله اما الخير كل الخير فهو في صمت المؤمن ، لانه يلقن الحكمة بصمته ، واذا نطق كان الدر . قال عليه السلام «اذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقن الحكمة» .

قال ابو ذر : قال لي رسول الله «الا اعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان ؟ قلت : بلى يا رسول الله قال : هو الصمت ، وحسن الخلق وترك ما لا يعنيـــك» .

والحديث الشريف ينقلني الى الحكيم لقمان ، وقد كان يجلس الى داود عليه السلام مقتبسا ، فوجده يعمل درعا من حديد ، فعجب منه ، ولم ير درعا قبل ذلك ، فلم يســـأله لقمان عما يعمل ولـــم يخبره داود حتى تمـــت الدرع فقاسهـــا داود على نفسه وقال : درع حصينة ليوم قتال . فقال لقمان : الصـــمت حكم وقليل فاعله .

ذلك هو الصمت الحكيم ، فأين فنانوه وأين أهلوه ؟
ورحم الله عبدا تكلم فغنم او سكت فسلم» .

صدق رسول الله

رجل ورجوله

ان مما يثير الدهشة والعجب ان يختل مقياس من مقاييس الحياة ، ويضطرب ميزان من موازينها ، كل ذلك واهلها راضون مغتبطون . وهذا هو العجب كل العجـــب .

ولتوضيح هذا الاضطراب اقول : لقد اسهب شرعنا في وصف مقياس الرجل وميزان الرجولة ، حتى بات هذا امرا خطيرا ، به تنتظم قوانين الحياة ، وتســـتقيم مبادئها .

وقد اعطي الرجل ضمن ما اعطي القوامة على المراة ، وهذا ما يعرفـــه الجميع ، ولكن كل حسب ادراكه وثقافته ، وهذه تعني اول ما تعني «الرجـــال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من اموالهم» .

والقوامة هنا ليست موضوعي ، وان كان علي ان اوضحها لانطلق بعدهـــا الى تتمة الحديث .

فالقوامة هي قيام الرجل بأمر المراة خير قيام ، والدفاع عنها في كل الظروف التي تكتنفها ، وفي كل موقف من مواقف حياتها .

اما قوله سبحانه «بما فضل الله بعضهم على بعض» فان هذا التفضيل يكون في الارث لما على الرجال من المهر والانفاق .

وللرجال فضيلة في زيادة العقل والتدبير ، كما ان لهم زيادة قوة في النفـــس والطبـــع .

وهذا وحده كاف لان يتولى الرجل الحق القيادة بما تستلزمه من عقل وتدبيـــر وقوة نفس وسلامة طوية وسعة افق وبعد رؤيا .

اما ان يختل في الرجولة امر من هذه الامور ، فهذا يعني الخطر ، والخطورة كامنة في عدم التزام الرجل بالمبادىء المقدرة له .

ومن أهم هذه المبادىء فيما اعتقد — عدم تجاهل الرجل او تناسيه بحال من الاحوال انه رجل .

وهذا يفرض عليه عدم غشيان مجالس النساء في صورة تأباها عليه رجولته وكرامتــه .

فقد اوصى رجل مؤدب ابنه فقال له ضمن ما قال : «وجنبه محادثة النساء» لما في هذا من الخطر بمكان على نفسية الرجل وجسده وعقله ووقته .

وهذا كله قمين بأن يحيد به عن الطريق الجاد الذي تلتزم به الرجولة في معظم مواقف الحياة بل كلها ، ويفرض عليه التخلق باخلاق النساء وترسم مواطن احاديثهن، وتصرفاتهن بل التشبه بهن فيما يصدر عنهن ، مما يتنافى مع اخلاق الرجال قال تعالى «او من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين» .

بل ان الامر يتجاوز هذا ، مع ما يفقده الرجل من الحياء ، وهو نراه يتبسط مع النساء في احاديثهن ، ويمضي معهن في متاهاتهن التي يضل معها الجد ، ويضحي الرجل ألعوبة هوى وضلال ، يفقد معها قدره وقيمته ، وهو ينساق في احاديــث فارغة ، تهون معها نفسه ، وهو ينزل منازل النساء ، متناسيا انه رجل ، حتى يضحي كأنه واحد منهن ، ولا يرضى عن مجالستهن بديلا .

بل ان مجالس الرجال تصبح عنده ممجوجة ممقوتة لانه يتباعد بطبعه عن جد الرجال ومعاناتهم ، علاوة على ما في هذا من اهدار للوقت ، وخيانة للضمير والسمع والبصر والفؤاد قال سبحانه : «ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنــه مسؤولا» .

وعلينا ان نتصور بعد ذلك ما يحدث لهذه الرجولة ، بعد ان تكون قد تمرست في ميوعة الاحاديث التي تفتقر في كثير من الاحيان الى الحياء .

قال عمرو بن عتبة : لما بلغت خمس عشرة سنة قال لي ابي : يا بني قد تقطعت عنك شرائع الصبا فالزم الحياء تكن من اهله . ولا تزايله فتبين منه .

وقال عبدالملك بن مروان لبنيه : وامنعوا النساء من غير الاكفاء فانكم اهل بيت يتأسى بكم الكريم ، ويتشرف بكم اللئيم .

والرجل هو من يعمل على تمسك المرأة بسترها وعفافها ، وهو هو من يساعد على تحللها ، وانفلاتها من عقالها ، بيده امرها ، وقيادها . وكيفما يكن الرجل تكن المـــرأة .

فهو المسؤول عما يصيبها ، يفقدها الحياء ان كان هو فاقدا له ، ويوردها موارد الغي ان كان هو واردها .

وملاك الامر كله الحياء . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لكل دين خلق ، وخلق الاسلام الحياء» .

وعن عبدالله بن عمر ان رسول الله (ص) مر على رجل وهو يعظ اخاه في الحياء . فقال رسول الله (ص) : «دعه فالحياء من الايمان» .

ومثل هذه المجالس — فيما اقدر — محرم على الرجل غشيانها ، وهي ما نعرفه باسم الاجتماعات النسوية التي يخشى الانسان مغبتها بما تبدأ به من خيانة البصر ، وهذه تجر وراءها البلايا والكوارث .

وقد قال رجل لبعض الحكماء : عظني . قال : لا يراك الله بحيث نهاك ، ولا يفقدك من حيث امرك .

وبعد هذا لنا ان نتصور ما يؤول اليه الحال حين يفقد الرجل والمرأة حياءهما ؟ عندها تنعدم الرجولة ، وتموت في نفس المرأة العزة والكرامة ، ولا يرجى بعدها امل.

ويبقى هناك في الميزان الرجل الحق والمراة العفيفة الحيية حيث لا اختلاط يفقدهما كيانهما وانسانيتهما ، ويحطهما الى درجة البهيمية .

وهذا كله يوزن في ميزان شرف الرجل وضميره وعقاله وايمان قلبــــه ، وكلها مقومات رجولته . ان فقد منها واحدا اضاع تاليه ، واذا فرط بشيء منها انفرط عقده كله ، واضحى جسدا ملؤه خواء وفراغ ، عندها نردد قوله سبحانـــــه : «اومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين» .

صدق الله العظيم

الوسواس الخناس

بسم الله الرحمن الرحيم . قل اعوذ برب الناس ، ملك الناس ، اله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس .

وقال رسول الله صلى الله عيه وسلم : «ما منكم من احد الا وله شيطان» . قالوا : وانت يا رسول الله ؟ قال : «وانا الا ان الله اعانني عيه فأسلم فلا يأمر الا بخير» .

في صور كثيرة يتبدى لكل منا شيطانه ، ومن مداخل كثيرة ومسارب خفية يتصدى لنا . فان قلنا شرا كان الشيطان هو القائل بلساننا ، واذا فعلنا كان هو الدافع الى ذلك الفعل . واذا ما انساق احدنا وراء شهواته وغرائزه كان الشيطان هو المزين له هذا . وهكذا ... كل شر ننوى او نصنع ان هو الا من فعل الشيطان .

ويوسوس الشيطان لبعضنا امورا غريبة لا تستقيم مع العقل والمنطق . وهي وساوس تنتابنا اذا ما اغفلنا ذكر الله سبحانه .

قال قيس بن الحجاج : قال لي شيطاني : دخلت فيك وانا مثل الجزور ، وانا الان مثل العصفور . قلت : ولم ذاك ؟ تذيبني بذكر الله تعالى .

والشيطان لا يكتفي بالمسارب الخفية ، ينفذ منها الينا ، ولكنه يجتاز الطرق الواضحة التي يدفع صاحبها من خلالها الى اطاعة ما يأمره به .

روى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : «كان راهب في بني اسرائيل . فعمد الشيطان الى جارية فخنقها ، وألقى في قلوب اهلها ان دواءها عند الراهب ، فأتوا بها اليه فأبى ان يقبلها . فلم يزالوا به حتى قبلها . فلما كانت عنده ليعالجها اتاه الشيطان فزين له مقاربتها ، ولم يزل به حتى واقعها فحملت منه ، فوسوس اليه وقال : الان تفتضح ، يأتيك اهلها فاقتلها ، فان سألوك فقل ماتت ، فقتلها ودفنها .

فأتى الشيطان اهلها فوسوس اليهم والقى في قلوبهم انه واقعها حتى حملت منه ثم قتلها ودفنها . فأتاه اهلها فسألوه عنها فقال ماتت . فأخذوه ليقتلوه بها ، فأتاه الشيطان فقال : انا الذي خنقها ، وانا الذي القيت في قلوب اهلها ، فأطعني تنج واخلصك منهم . قال : بماذا ؟ قال : اسجد لي سجدتين ، فسجد له سجدتين . فقال له الشيطان : اني بريء منك وهو الذي قال الله تعالى فيه «كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر ، فلما كفر قال اني بريء منك» (الاحزاب : ١٦) .

واركز هنا على تزيين الشيطان للراهب في قبول الجارية للمعالجة ، وهو امر هين ،وربما يظن صاحبه انه خير ، فيحسن ذلك في قلبه بخفي الهوى ، فيقدم عليه كالراغب في الخير ، فيخرج الامر بعد ذلك عن اختياره ، ويجره البعض الى البعض، بحيث لا يجد محيصا . قال رسول الله (ص) : «من حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه» .

هذه الصورة تتكرر في اكثر من ثوب في حياتنا ، ولكن يبقى الجوهر كما هو ، الخير في الظاهر ، اما الباطن فهو الهوى الضلال .

ففي كل يوم نسمع ونشاهد العجب من هذه الصور التي تنتهي دائما بفاجعة او كارثة ، لان الشيطان يزين شرها في البداية خيرا ، فما ان يخرج الامر عن اختيار الانسان حتى يتخلى عنه الشيطان تاركا اياه في الحسرة والندم على ما جنته يداه .

وادل هنا على واحدة من قصص الشيطان ، حين يعمل في الصدور التي نسيت ذكر الله فأنساها الله انفسها .

انعقدت الصداقة بين اسرتين من الاسر ، زين لها الشيطان الاختلاط بين جميع افرادها ، حتى باتت فيها الآمر الناهي .

فقد علق الزوج زوجة صديقه علوقا لم يجعل لهما فيه الشيطان فكاكا ، حتى انتهى الامر بزواج الاثنين ، مدمرا بيتين ومشردا اطفالهما .

ولم يكتف الشيطان بذلك ، بل انه احال نفس الزوجة المغدورة الى بركان ثائر وانتقام لكرامتها مما حملها على ان تلقي بنفسها بين ايدي الزوج الاخر .. وهكذا مخادعان ومخادعتان ، لعب بهما الشيطان فتشرد الاطفال .

واقف هنا فأقول ، كما ان الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم فسلطنة الشيطان ايضا سارية في لحمه ودمه ، ومحيطة بالقلب من جوانبه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع» .وذلك لان الجوع يكسر الشهوة ومجرى الشيطان الشهوات .

وفي تصوير اكتناف الشهوات للقلب قال تعالى : «لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم» . (الاعراف : ١٧) .

اما سلطان الشيطان على ابن آدم فقد بينته الآية الكريمة : «ا ن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، انما يدعو حزبه ليكون من اصحاب السعير» .

وهنا لا بد من ابراز امر من خلال ما رويت . فان كثيرا من الناس ينخدعون بالمظاهر التي يحياها سواهم ، وينبهرون بالقشور التي تحيطهم . وهم من هنا يعتقدون ان ما عند الناس افضل مما عندهم ، وان ما في ايدي الناس يفضل ما في ايديهم .

ويصل بهم الجهل حدا يجعلهم يعتقدون ان من يغترون بهم برآء من العيوب والمساوىء ، لانهم لا يرون فيهم الا ظاهرهم .

ولكن ما نعرفه عن الناس انهم يحاولون التظاهر بأبهى حالاتهم امام غيرهم ، وكلما ازددنا اقترابا منهم ازددنا بجوهرهم معرفة فان «المرء بأصغريه قلبه ولسانه»، كما يقول رسول الله (ص) ، ويقول عليه السلام : «ان الله لا ينظر الى صوركم واشكالكم ولكن ينظر الى قلوبكم واعمالكم» .

ولكن انى للشيطان ان يترك عباد الله ، ونحن نرى وساوسه تعمل في قلوب بعض النساء اللواتي يعتقدن ان مظاهر بعض الرجال انعكاس لجوهرهم ، فهم من هنا افضل من يعرفن ، وكذلك بعض الرجال الذين ينبهرون بالقشور والاصباغ التي تصبغ بعض النساء فيظنون فيهن أفضل النساء ، فيتحرك بذلك الوسواس في نفوسهم ، وينفذ اليهم الشيطان من خلالهن . قال رسول الله (ص) : «ما اخاف على أمتي فتنة أخوف عليها من النساء والخمر» .

ويبقى في ذكر الله الخلاص من الشيطان ، حتى تسد عليه الابواب كلها . وقد قال حكيم من الحكماء : الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي ، فان امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة ، فان أبى أمره بالتحرج والشدة حتى يحرم ما ليس بحرام ، فان أبى شككه في وضوئه وصلاته حتى يخرجه عن العلم ، فان أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابرا عفيفا فتميل قلوبهم اليه فيعجب بنفسه وبه يهلكه ، وعند ذلك يشتد الحاجه فانها آخر درجة ويعلم انه لو جاوزها أفلت منه الى الجنة . قال تعالى : «فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم» .

صدق الله العظيم   والحمد لله أولا وآخراً

كلنا فقراء الى الله

قال تعالى «ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما» .

كثيرا ما تدور الاحاديث والتساؤلات حول حقيقة الخلق والخليقة واختلاف الناس وتفاوتهم ، وبخاصة التفاوت الطبقي ، او المادي . فهناك الغني ، وهناك الفقير .

وحين يصل المرء الى هذه النقطة يقف عندها ، وقفة مستريحة ، تتشابك فيها الآراء حول تفاوت البشر الطبقي ، وتكثر الاسئلة ، لم وجد الغني غنيا والفقير فقيرا ؟ ما الحكمة في هذا كله ؟ وهل كون هذا او ذاك فقيرا يشفع له عند الله بسبب ما يعانونه في الحياة الدنيا ؟ وهكذا .. الاسئلة كثيرة .. وحولها نقول ..

التفاوت في الاسلام نهج طبيعي لا بد منه ، ومرد هذا ان الناس متفاوتون فيما هو اهم من المال . وتفاوتهم في الصحة والقوة العقلية والذكاء ، وتفاوتهم في مقدار توفيقهم في الزواج او الجوار او الصحبة ، وتفاوتهم في مدى صلاح اولادهم ونجاحهم ، وتفاوتهم في الشكل واللون والصوت والسلوك .. الخ .

مجتمع اسلامي متكامل في جميع مناحيه ، متكافل بجميع افراده . وقد قال فيه رسول الله (ص) : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى» .

والاسلام قد أقر التفاوت في الغنى بمقدار الجهد الذي يبذله الشخص ، وبمقدار ما يصيبه من حظ وتقدير . وهو يحصله بطريقين مشروعين هما العمل والميراث .

والعمل الشريف من اهم الامور التي اهتم الاسلام بها ، واكدته آيات كثيرة واحاديث قال سبحانه : «فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه» (الملك ١٥) .

وبلغ هذا الاهتمام حدا كبيرا الى درجة ساوى فيها بين العامل الجاد وبين المكافح في سبيل الله «وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله» . (المزمل ٢٠) . وقال الرسول (ص) : «اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا[١]» .

والطريق المشروع الثاني للغنى هو الميراث ، فالمال بعض ما يرثه الانسان عن آبائه ، ولكنه يرث عنهم ما هو اعظم من المال ، فهو يرث الشكل واللون ، ويرث احيانا الصحة والمرض ، ويرث كثيرا مما فيهم .

فكما ان وجود الغنى امر طبيعي في الحياة ، كذلك الفقر ، ووجودهما موافق للفطرة الانسانية . والاسلام يحترم هذه الغرائز ويخاطبها وينميها . وفي تقريرها مجال للتنافس الذي يؤدي الى خير المجموع «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات» (الزخرف ٣٢) .

وهذه القسمة بينتها الآيات الكريمة فقال سبحانه «الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» (الرعد ٢٦) . وهذا يدفعنا الى تفسير نعتقده وهو ان المجتمع الانساني يشبه في بعضه اصابع اليد المتفاوتة ، وهذا التفاوت هو بحد ذاته سر مهارتها فيما تقوم به.

ومثلها الناس غنيهم وفقيرهم ، والفقير هو دافع الغني الى الرحمة والشفقة والعطف والتعاطف والتكافل والتكامل في مجتمع اسلامي يطبق الشرع كما شاءه الله سبحانه ، وكما طبقه رسول الله (ص) وصحابته الراشدون رضوان الله عليهم .

ومال الغني هو مال الله وضعه في ذمته ، حتى يحقق من خلاله سعادة المجموع . قال تعالى «واورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وارضا لم تطئوها ، كذلك واورثناها قوما آخرين» . وقال (ص) : «ان لله عند قوم نعما اقرها عندهم ما كانوا في حوائج الناس ما لم يملوهم ، فان ملوهم نقلها الى غيرهم» .

وهذا يؤكد ما نراه في حياتنا وما قرأناه ونقرؤه ، وما سمعناه ونسمعه ، وهو ان الغنى والفقر امران عارضان لا يدومان ، فلا الغني يبقى غنيا ، ولا الفقير يبقى فقيرا ، حتى تمضي حكمة الله وسنته في خلقه .

كما يشير الى نقطة نلمح حكمتها ، وهو ان غنى الغني ليس ملكا له ، اذ ان عليه ان ينفقه فيما يعود بالسعادة والاسعاد والخير على المجتمع ، لينتفع به الزارع

والعامل والصانع والتاجر وغيرهم وكل يعمل برضى الله وتقواه العمل الذي يكفيه السؤال ، ويحفظ له ماء وجهه وكرامته التي هي سر حياة الانسان الكريم .

وبهذا يضمن للمجتمع التعاون بين جميع افراده ، كل في ميدانه ، وكل يكمل الاخر بالشرف ، كلهم في النهاية يتعاونون على تشغيل مال الله الذي وضعه امانات في ايدي اصحابها .

من هنا كان ذلك الغني الذي يكنز مال الله ويبخل به مستحقا غضب اللـــه وعذابه «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون» (التوبة ٣٤ ، ٣٥) .

وكما ان على الغني الا يكنز مال الله فان عليه ايضا الا يتهاون في حقه ، ويسرف فيه ، فان هذا يحول دون وضعه وانفاقه في وجهه السليم «ولا تسرفوا ان الله لا يحب المسرفين» بل ان المسرفين هم اخوان الشياطين «ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا» .

اما الخير لصاحب المال والمجتمع فهو الاعتدال في الانفاق ، وهذا يحقق العدالة الاجتماعية المتكاملة «والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما» (الفرقان ٦٧) .

فمال الله هذا لا يستخدم الا في الخير وتقوى الله ومرضاته ، بعيدا عن مزالق الشيطان كالرشوة والاحتكار وسواهما ، وهذا يعني ان المال ينفق في غير الصالح العام ، ولكنه ينحصر في فئة دون اخرى «ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون» (البقرة ١٨٨) .

وقال رسول الهدى (ص) : «الراشي والمرتشي في النار» .

وكما لا يستخدم مال الله في الرشوة فانه لا يستخدم في الاحتكـــار ، فان هذا يؤدي الى خاق الهوة بين الناس ، وتنعدم الرحمة والشفقة والعدل ، اذ ان ذلك المحتكر ينسيه الشيطان مصلحة الناس ، ويتلاشون جميعا امام نفسه ومصلحته وجشعه . قال (ص) : «من احتكر طعاما اربعين يوما يريد به الغلاء فقد برىء من الله وبرىء الله منه» . وقال (ص) في ذلك الجشع المحتكر «بئس العبد المحتكـــر ان ارخص الله الاسعار ، حزن ، وان أغلاها فرح» .

ذلك مال الله يؤتيه من يشاء لخير الجماعة ، فان احسن صاحبه استخدامه وتشغيله بارك الله له فيه ، وان لم يكن كذلك جاز فيه الحجر على ذلك المال الذي لم يحسن القيام عليه ، وتشغيله .

وهذا التشغيل هو في المقام الاول لصالح الفقير الذي كان فقره مفجرا لشتى العواطف النبيلة والمشاعر الكريمة في نفس الغني . وهذه توثق العلائق بين افراد المجتمع ، فقيرهم وغنيهم ، وكلهم يتعاونون ويتكاملون في اطار الرحمة والشفقة والايثار والمودة والرفق .

والوفاء بحاجة الفقير عمل تلتزم به الدولة ويلتزم به الغني ، وهو حق لازم له، وليس صدقة او منحة قال سبحانه «وفي اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» (الذاريات ١٩) .

وهذا الحق الذي تلتزم به الدولة لا بد ان يتحقق بتعرف احوال الرعية ، والبحث عن الفقير حتى تؤدي له حقه بالحماس ذاته الذي تؤخذ به الضرائب .

وحق الفقير في مال الغني الذي يتضمن المأكل والملبس والمسكن قسمان : الحق الثابت الدائم بلا انقطاع وهو الذي يدفعه الغني للفقير اما مباشرة او عن طريق الدولة توزعها كيف شاءت ، وهذا ما يعرف بالزكاة . والحق غير المحدد الذي يتبرع به الاغنياء والقادرون في الاوقات العصيبة .

وفي الحق الاول قال سبحانه «قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون» .

وقال تعالى في الحق الثاني «ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة» . وقال (ص) «ان الله فرض على الاغنياء في اموالهم بقدر ما يسع فقراءهم» . وقال (ص) «ما آمن بي رجل بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم» .

هذا هو المجتمع المتكامل المتراحم في ظل شريعة الله الاسلام . يقولون في هذا (ول ديورانت) صاحب موسوعة «قصة الحضارة» : «ولسنا نجد في التاريخ كله مصلحا فرض على الاغنياء من الضرائب ما فرضه عليه محمد لاعانة الفقراء .

وبالاضافة الى الزكاة كان محمد يحض كل موص بأن يخصص من ماله جزءا للفقراء». وهذا الجزء الذي يخصص للفقراء ليس لاطعامه فقط ولكن لايجاد عمل له به ، وذلك باعطائه راسمال يبدأ به عملا يعيش منه ابدا . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحث هؤلاء على شراء غنم بنصيبهم لتكون لهم بذور ثروة .

وفي هذا المجتمع المتكامل راعى الاسلام مشاعر الفقير ، حتى لا تخدش كرامته ويتألم قلبه بسبب التفاوت في الملبس ، فحرم لبس الحرير واستعمال الذهب والفضة والمبالغة في تجميل المساكن ووسائل الركوب الخاصة فوصف الرسول (ص) المساكن المجملة بأنها بيوت الشياطين ، ووسائل الركوب بابل الشياطين فقال «تكون ابل للشياطين وبيوت للشياطين ، فأما ابل الشياطين فقد رايتها ، يخرج احدكم بنجيبات معه ويمر بأخيه قد انقطع فلا تحمله . اما بيوت الشياطين فلا اراها الا هذه الاقفاص التي تستر الناس بالديباج» ه

صدق رسول الله

السكينة النفسية

قال تعالى : «هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم» .

كتب أحد الاطباء اللامعين في أمريكا : وضعت مرة وأنا شاب جدولا لطيبات الحياة المعترف بها ، فكتبت هذا البيان بالرغائب الدنيوية : الصحة ، الحب والموهبة والقوة والثراء والشهرة . ثم تقدمت بها في زهو الى شيخ حكيم .

فقال صديقي الشيخ : جدول رائع وهو موضوع على ترتيب لا بأس به ، ولكن يبدو لي أنك أغفلت العنصر المهم الذي يصبح جدولك بدونه عبئا لا يطاق ، وضرب بالقلم على الجدول كله وكتب كلمتين «سكينة النفس» وقال هذه هي الهبة يدخرها الله لاصفيائه ، وانه ليعطي الكثرين الذكاء والصحة والمال ، وليست الشهرة بنادرة ، أما سكينة القلب فانه يمنحها بقدر .

ويمضي الطبيب فيقول : وقد وجدت من الصعب تقبل هذا ، ولكن الآن بعد نصف قرن من التجربة الخاصة والملاحظة الدقيقة ادركت أن سكينة النفس هي الغاية المثلى للحياة الرشيدة، وانا اعرف ان جملة المزايا الاخرى ليس من الضروري ان تعطي المرء السكينة التي تزهر بغير المال ، بل بغير مدد من الصحة . هي اي السكينة تحول الكوخ الى قصر رحب ، أما الحرمان منها فانه يحيل القصر قفصا وسجنا .

فسكينة النفس لا تحققها ماديات الحياة ، ولكن يحققها شيء واحد الايمان المطلق الصادق الذي لا تشوبه لمحة شك .

وهي النفحة الالهية يلقيها الله في قلوب المؤمنين لتحصنهم وتحميهم وتثبتهم اذا هلع الناس ، وترضيهم اذا سخط الناس وتصبرهم اذا جزع الناس .

والايمان الذي يعطي السكينة لا يتحقق الا بالاعتقاد الكامل الجازم بالله وقدرته وابداعه وتدبيره وتقديره ، وأن هذا الخلق والابداع والتدبير والتقدير ان هو الا تدبير حق وخير وعدل « وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسـمى » (الاحقاف ٣) . وقوله سبحانه «خلق الله السموات والارض بالحق ان في ذلك لآية للمؤمنين » (العنكبوت ٤٤) .

والايمان هو ان نكون متيقنين في أن حب الله سبحانه في قلوبنا وصدورنا ، نتفيأ ظله ، ونرتجي عفوه ورحمته وتوفيقه ، وهو معنا ، وهو ارحم علينا من والدينا ، يستجيب لنا حين ندعوه « ادعوني استجب لكم » ، ويغفر لنا حين نسترحمه بقلوب تغسلها دموع التوبة «قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوبجميعا انه هو الغفور الرحيم » .

هذا هو الايمان في أبسط معانيه ، يعطينا السكينة التي نرجوها ونسعى اليهـا ، فهي روح من الله ونور يسكن اليه الخائف ، ويطمئن عنده القلق ، ويتسلى به المحزون ويستروح به المتعب ، ويقوى به الضعيف ويهتدي به الحيران .

فمن منا لم تؤلمه الحياة بقسوتها ؟ ومن منا لم يعلق به نكد الايام ؟ ولكن كم هم الذين لم ييئسوا من روح الله « ولا ييئس من روح الله الا القوم الكافرون » .

وعند هذه النقطة من امتحان الحياة يكون الايمان .. فاما الايمان المطلق برحمة الله بلا حدود ، واما اليأس وهذا هو كفر اليائسين .

وبمقدار ذلك الايمان تكون السكينة التي تعمر قلوب المؤمنين اليست هذه السكينة التي عمرت قلب رسول الله (ص) يوم الهجرة ، فلم يعره هم ولا حزن ، ولم يسـتبد به خوف ولا وجل ، ولم يخالج صدره شك ولاقلق « فقد نصره الله اذا اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا » .

فقد غلبت على صاحبه ابي بكر الصديق مشاعر الحزن والاشفاق لا على نفسه، بل على الرسول وعلى رسالته حتى قال والاعداء محدقون بالغار : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . فيقول الرسول مثبتا فؤاده : « يا ابا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »

وبم تفسر تلك السكينة التي استحوذت على قلب يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت ، في ظلمات داخل ظلمات ؟ أليس الايمان المطلق الذي يعطي صاحبه اليقين في أن الله أقرب الينا من حبل الوريد ، وأنه أرحم علينا من البشر أجمعين ، حين نستعطفه ونستغفره ونتوب اليه من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا بقلوب باكية وعيون دامعة دموع التوبة «وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين» . (الانبياء ٨٧ ، ٨٨) .

أما الاسباب التي تجلب السكينة الى قلب المؤمن فهي اهتداؤه الى فطرته التي فطر الناس عليها . وهذه الفطرة لا يملؤها علم ولاثقافة ولافلسفة ولا جاه ولاسلطان .

وهذه الفطرة تواقه أبدا الى الري والشبع حتى تجد الله وتؤمن به ، وتتوجه اليه ، وتهتدي بهديه .

عندها فقط يستريح من عناء ،ويرتوي من ظمأ ، ويأمن من خوف ، وتحس النفس بالاستقرار بعد الضياع . والطمأنينة بعد القلق .

وبدون هذا يبقى الانسان تائها محيرا مضيعا ، تمضي حياته بغير هدف ، ويدور في فراغ يسلمه الى فراغ ، يبحث عن نفسه فلا يجدها ، يفتش عن ذاته فلا يعثر عليها ، « كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » (الحشر ١٩) .

فأيامه تمضي بلا محور يضبطها ، بلا رابط يشد عراها الى أعماقه والى قلبه ، حيث الفراغ والخواء . قال ابن القيم الجوزية : في القلب شعث لا يلمه الا الاقبال على الله . وفيه وحشة لا يزيلها الا الانس بالله . وفيه حزن لا يذهبه الا السرور بمعرفته وصدق معاملته . وفيه قلق لايسكنه الا الاجتماع عليه والفرار اليه . وفيه نيران حسرات لايطفئها الا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك الى وقت لقائه .

وفيه فاقة لا يسدها الا محبته والانابة اليه ودوام ذكره وصدق الاخلاص له . ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا .

فالقلب جانب من الفطرة الانسانية ، اما الجانب الثاني فهو العقل . والفطرة ليست تفكيرا خالصا ولا شعورا محضا . وقد جاء الدين يخاطب التفكير والشعور معا .

واعتماد العقل وحده لا يصل بالانسان الى عقيدة سليمة راسخة ، اذ انه مهما أوتى من الذكاء والقدرة على التجربة والقياس والاستنتاج فهو محدود بحدود الطاقة البشرية ، مقيد بقيود المكان والزمان والوراثة والبيئة .

لذا فهو لا غنى له ابدا عن سند يسدده اذا اخطأ ، او يهديه اذا ضل ، وهذا السند هو الوحي . وفي هذا وحده الراحة من عناء البحث والتساؤل والجدال فيما يبدد الطاقة دون الظفر بما يغني .

وبهذا اعفاء من تجشم رحلات شاقة ، والسير في دروب معتمة ملتوية لا يعرف الام تنتهي . وهو يقدم للانسان ما ينبغي ان يعلمه وما يستطيعه عن مبدأ الوجود ومنتهاه وعلة اسراره تقديما سائغا خالصا لتريحه من جدل المجادلين وتفلسف المتفلسفين ، وتخرصات المتكلفين .

ولولا هذا كله لسار الانسان في صحراء واسعة ليس فيها غير السراب ، وليقضي حياته في ظلمات متراكمة «كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور» (النور ٤٠) .

قال الفخر الرازي في «كتاب اقسام اللذات» بعد ان وقف على افكار المتقدمين والمتأخرين وطاف بدائرة المعارف الفلسفية والكلامية لعصره : لقد تأملت الكتب الكلامية والمناهج الفلسفية فما رايتها تروي غليلا ولا تشفي عليلا ، ورايت اقرب الطرق طريقة القرآن .

وهذا يؤكد للمتفلسفين والجاحدين والمنكرين ان اهدى السبل واقربها وآمنها للظفر بالسكينة النفسية والقلبية والعقلية هو الوحي الذي يعصمه من الشك المدمر ، والقلق المروع «فاستمسك بالذي اوحى اليك انك على صراط مستقيم» . «فتوكل على الله انك على الحق المبين» .

والحق المبين لا يظفر به الا المؤمن بوحي الله وهداه . وهو السبيل الى الوصول الى اليقين في قضايا الخالق والخليقة ، وبغيره لن يكون يقين ، وبغير اليقين لن تكون سكينة ، وبغير السكينة لن تكون سعادة . والسعادة في الايمان .

وبالايمان حل المؤمن الغاز الوجود الكبرى ، فزالت علامات الاستفهام ،وانحلت عقدة الشك وعرف الطريق القويم فسلكها غير هياب ولا متردد ولا قلق . انه طريق الله ، والرجوع الى الله ، والاستسلام الكامل لحكم الله «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم». «انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا اولئك هم المفلحون» . (النور ٥١) .

وكل ما تقدم اوجزه في تعبير يشيع استخدامه بيننا وهو يدل على عفوية الايمان في القلوب «كن مع الله ولا تبال» . قال رسول الله (ص) في حديثه القدسي «انا عند ظن عبدي وانا معه اذا ذكرني» . وقال سبحانه «ومن يتوكل على الله فهو حسبه».

وفي ذلك يرتاح قلب المؤمن ، وتسكن جوارحه ، وتطمئن نفسه ، وهو متيقن ان الله معه بهدايته وتوفيقه ، مما يهون عليه الايام ويذلل الصعاب ، وهو يردد قوله سبحانه «ان معي ربي سيهدين» (الشعراء ٦٢) .

صدق الله العظيم

امك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك

لقد كثرت احاديثي عن الام وفضل الام وقداسة الام ، وعن الاب وكده وكفاحه. هذان المخلوقان اللذان جعل الله سبحانه رضاءه في رضائهما ، وقرن شكره بشكرهمـــا .

وما يحملني على ذلك ليس بر الابناء البررة بآبائهم وامهاتهم ، ولكنه عقوق من عق ، وهو ينتظر بدوره ان يعقه ابناؤه كما عق هو امه واباه .

ولست ادري بم يفسر كل منا بره او عقوقه . ولكن في البر والاحسان كل خير ورحمة بهذين المخلوقين اللذين اكتملت بهما حياة ابنهما ، بما نفحاه من حياة بكدهما وشقائهما وعرقهما وسهر لياليها . وهما مع هذا كله يستعذبان الضعف الذي تخلف عن منح ابنائهم القوة والشباب والكفاح .

والبر والاحسان بالوالدين يكون بتجنيبهما كل قلق ينتج عن شعورهما بالوحده بعد ان كبر ابناؤهما ، واستقلا في الحياة بعيدا عن قوة الوالدين بعد اذ لم تعد لهما تلك القوة الفعالة الجبارة .

والبر والاحسان الا تضعهما في مكان اقل حسنا مما انت فيه مما لا يليق بكرامة الانســـــان .

وعند هذه النقطة اتساءل : كيف هو شعور اولئك الذين استحوذ الشيطان عليهم فألقوا بأمهاتهم وآبائهم وراء ظهورهم بعد ان إمتصوا كل عروق الحياة منهم .

فقد هيأ لهم شيطانهم ان البقاء للاقوى على حساب آبائهم ، فتحجرت قلوبهم وعميت افئدتهم وانساقوا وراء وساوس الشيطان ، فسكنوا هم الدور التي صنعتها لهم قوة آبائهم ومكابدتهم في الحياة واسكنوا هؤلاء الآباء دهاليز الحياة ، لانهم — ويا لعارهم — باتوا يأنفون ممن صنعوهم واعطوهم كرامة الحياة بما بذلوه وعانوه .

وفي الحياة المعاشة كثير من صور الالم الذي يعانيه آباء وامهات .

فهذا مثلا ابن كتب له ابوه في حياته الدار التي قضى العمر في بنائها ، وما ان تم ذلك للابن حتى بات الشيطان حليفه ، وقد زين له طرد الاب من الدار التي لم تعد ملكا له كما يدعي عقوق الابن ، وانتهى الحال بذلك الاب الى احدى زوايا الحياة المظلمـــة .

وفي هذا ألف سؤال وسؤال ، وكلها تحمل دموع الالم ، وكلها تنبىء بغضبه الله الجبار لاجل آلام أب او دمعة ام .

وارى ان اسوق هنا كلمة كتبها احد الحكماء اذ يقول «لا يغترن احد بطول عمره ورقة عظمه ووهن قوته ان يرى اكرومته ولا يخرجه ذلك الى اخراج ماله من يديـــه ، وتحويله الى ملك غيره .. فلعله ان يكون معمرا وهو لا يدري ، وممدودا له في السن وهو لا يشعر . ولعله ان يرزق الولد على اليأس او يحدث عليه بعض مخبآت الدهور مما لا يخطر على البال ، ولا تدركه العقول ، فيسترده ممن لا يرده ، ويظهر الشكوى الى من لا يرحمه ، اضعف ما كان عن الطلب ، واقبح ما يكون عن الكســـب» .

صورة اخرى تقول ان فلانا قد طرد امه من بيته ، لتسكن بعيدا عنه ، وحيدة بلا حول . وتعليلهم في هذا هو ان الابن لم يعد قادرا على التفاهم مع امه .

عجبـــا ! تفاهم ينعدم بين الابن وامه بعد ان اصبح هو ابا ، وهذه الابوة تعني ان يتدعم التفاهم ويتأصل بعد ان اصبح يحس بعواطفها ويدرك كنهها في ابنائه .

وكلنا يعلم انه ما من امر يمكن ان يبعد الابناء عن الوالدين حسا ومعنى وروحا في الحياة ، والعقل والمنطق يأبيان الا ان تزداد الوثائق والوشائج قوة ومتانة ، والا كان الخلل في معنى الحياة ومقاييسها . حيث اتم الوالدان رسالتهما بذلا وتضحيـــة وكدا ومعاناة ، والامر البدهي في هذا ان يحفظ الابناء ويبروا ويكملوا مع الوالدين رسالة الحياة باذلين ما بذل الاباء لتكتمل سنتها فينا آباء وامهات ، ثم بنين وبنات ، ثم أحفادا .

ويشاء سوء طالع البعض ان يكون لهم شأن اخر مع الرسالة المقدسة ، حيث يتجاهلونها ، مغفلين اقدس حقوق الله والوالدين ، وهي حقوق تؤدي او يجب ان تؤدي لهما حتى مع شرك احدهما .

عن اسماء بنت ابي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت : قدمت علي امي وهي مشركة ، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : قدمت على امي وهي راغبة أفأصل امي ، قال : «نعم صلي امك» .

فهل هناك ما هو اكثر من الشرك . فليعلق على هذا من يشاء .

وبر الوالدين اوسع مما يعتقده المعتقدون ، فان الكلمة الخشنة ليست من البر والاحسان في شيء .

وقد تتساءلون عن ماهية تلك الخشونة ، واعفيكم من الرد بقوله سبحانه : «فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما» .

فحين يهرم الوالدان ، بل الانسان عامة فان سنة الله لا بد ان تمضي حتى نهايتها «ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا» (الحج ٢٢) .

وهذا يعني الطفولة الثانية التي ينقلب اليها الانسان مما يدفعه الى التصرف بما يثير الضجر احيانا ، وهذا يعبر عنه بأساليب شتى ادناها لفظة اف ، وهي مقياسنا برا او عقوقا .

والمؤمن بربه وبحق والديه لا يترك لهذه الأف سبيلا الى قلبه قبل لسانه مع كل ما يصدر عن والديه . فارضاؤه سبحانه مرتبط بارضاء الوالدين ، وسخط الرب في سخط الوالد .

ومن بر الوالدين والاحسان اليهما الا يثار الغبار وهما جالسان .. الى هذا الحد من الحدب عليهما والرفق بهما دعا الاسلام وقد بات الوالدان احوج ما يكونان الى الرفق والرحمة من ابنائهما الذين باتوا قوة آبائهم وذخيرتهم وسندهم . ولا تطلب الذخيرة ولا يرجى السند الا حين الضعف ، فهل يبخل بها الاقوياء ؟

ومع هذا فاننا كثيرا ما نسمع شكوى ام ونرى حسرة اب بلغ عقوق ابنهما الى حد ضربهما . عن رسول الله (ص) «رغم انف ثم رغم انف ثم رغم انف قيل من يا رسول الله ؟ قال «من ادرك ابويه عند الكبر احدهما او كليهما فلم يدخل الجنة» . ومعنى هذا ان برهما عند كبرهما وضعفهما بالخدمة او النفقة او غير ذلك سبب لدخول الجنة ، فمن قصر في ذلك فاته دخول الجنة وارغم الله انفه .

وبر الوالدين لا يكتمل الا باكرام حبهما ، ومن لهم ادنى علاقة بهما ، قال رسول الله (ص) «ان ابر البر صلة الولد اهل ود ابيه» مسلم ١٦ : ١٠٨ .

اخرج ابو داود عن عمرو بن السائب انه بلغه ان رسول الله (ص) كان جالسا. فأقبل ابوه من الرضاعة ، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه . ثم اقبلت امه من الرضاعة فوضع لها شق ثوبه من جانبه الاخر فجلست عليه . ثم اقبل اليه اخوه من الرضاعة فقام رسول الله فأجلسه بين يديه» .

وبعد ، فلو قدر الابناء حق رسالة الاباء ، ولو وضع الابن نفسه مكان ابيه ، ووقفت البنت في موضع امها لادركوا جميعا مدى ما يظلمون امهم واباهم ، ولعلموا ما يستشعره الاباء من الم بانكار الابناء فضلهم ومكابدتهم وعناءهم .

ولكن يبقى الاباء آباء ، وتبقى الامهات امهات ، ابدا يغفرون ودوما يصفحون ، ويمضون في العطاء والسخاء حتى مع ضيق قدرتهم على العطاء والسخاء .

ويسيرهم في عطائهم عظيم اذا ما قيس بالقلب الرحيم الذي يحب ويعطي وبالنفس الكريمة التي تمول وتسخو .

فقلوب الآباء مجبولة ابدا بالمغفرة والرحمة ، ونفوسهم مهيأة دائما للبذل والفداء حين يلم بالابناء امر .

فأدنى درجات التقدير لاولئك الآباء البر . والبر الصلة واللطف وحسن الصحبة والعشرة والطاعة ، وهذه الامور هي مجامع حسن الخلق . قال رسول الله (ص) «البر حسن الخلق ، والاثم ما حاك في نفسك وكرهت ان يطلع عليه الناس» . وقال عليه السلام «بروا آباءكم يبركم ابناؤكم» .

صدق رسول الله

قال تعالى «لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوي عزيز» .

فالاسلام دين القوة ودين العزة والاقدام ، دين لم تقرره السماء ختاما للاديان الا لانه مساير لتطور العصور التي تعتمد القوة اساسا لها ، ولتدرج المجتمعات والامم التي لا تنال مكانها تحت الشمس الا بالقوة والجراة والشجاعة التي دانت امم الارض بها للعرب فقال فيهم سبحانه وتعالى «كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» .

ومما لا شك فيه ان عرب اليوم غير عرب الامس ، والامة العربية الحاضرة غير تلك الامة التي لاقت وجه ربها وهي انضر ما تكون وجوها وقلوبا «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا» .

لقد كان رسول الله (ص) قدوة للعالم ولامة العرب تلك ، فقد اقتدوا به زعيما وقائدا ، وساروا على نهجه حاكما ومشرعا ، وعملوا بسنته الشريفة قلبا وروحا .

فتلك الامة هي امة الله وامة رسوله عملت بقوله وفعله حيث قال وفعل «والذي نفسي بيده لولا ان رجالا من المؤمنين لا تطيب انفسهم ان يتخلفوا عني ولا اجد ما احملهم عليه .. ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده لوددت ان اقتل في سبيل الله ثم احيا ثم اقتل ثم احيا ثم اقتل» .

وقال (ص) القائد القدوة حين يقاتل قتالا لا يخشى معه من الاخطار ، ويسيل معه دمه الزكي الطاهر فداء دينه واعلاء كلمة ربه ويردد «هل انت الا اصبع دميت ، وفي سبيل الله ما لقيت» .

وهو عليه السلام في المقدمة حين يشتد القتال وتحمر الحدق ، وكان حين يردد آية القوة والاستعداد «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة» يقول «الا ان القوة الرمي، ارموا بني اسماعيل ، فان اباكم كان راميا ، ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه، فانها نعمة تركها» .

الرسول الزعيم القائد القدوة لامة كانت قدوة ، فقد كان الرعيل الاول من المسلمين يلبون مؤذن الجهاد ، وداعي النفرة والتعبئة ، ويذهبون الى رسول الله (ص) ليحملهم الى مواقع القتال ، وكانت وسائل النقل لا تسعف على حمل كل هؤلاء الذين اندفعوا حبا في القتال والاستشهاد رفعا لراية الحق ، ولكن النبي (ص) يعتذر اليهم فتفيض دموعهم حزنا الا يدركوا الشهادة ، فقال سبحانه «ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون» (التوبة ٩٢) .

فأين امتنا الحاضرة من تلك الامة ؟ اين الخلف من السلف ؟ بل اين حاضرنا من ماضينا ؟

لقد انبت هذا الحاضر عن الماضي ، وبات المستقبل تائها مضيعا ، وتشتتت امة العرب مزقا في حاضر نسي الماضي وضاع منه المستقبل .

فكيف تمضي هذه الامة وهي تفتقد مقوما من اعظم مقوماتها ، وتضيع أعز مكوناتها ، فقدت الشجاعة في القتال والجراة في الحق ، واستكانت الى حياتها الدنيا تنهل منها ما شاء لها ذلك فقال فيهم سبحانه «اولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالاخرة ، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون» (البقرة ٨٦) .

واشترت هذه الامة بعهد الله ثمنا قليلا فخسرت الدنيا والاخرة فكانوا كما قال سبحانه «ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا اولئك لا خلاق لهم في الاخرة ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم» (آل عمران ٧٧) .

فالاسلام ربى الشجاعة في نفوس اهله ، بمعناها الشامل الواسع ، واول هذه الشجاعة الحرية التي تعلو بها راية الله سبحانه ، وتحمى بها الاوطان ، وتوطد بها اركان الامن ودعائمها . قال تعالى «ولا تهنوا في ابتغاء القوم ، ان تكونوا تألمون فانهم يألمو نكما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليما حكيما» .

ولا بد لهذه الشجاعة من قوة مادية تؤيدها ، وهذه القوة هي الاستعداد بجميع وسائل القتال «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم واخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم» .

وقد صرح القرآن الكريم بهذه القوة التي ترهب الاعداء ، وهي الحديد والسلاح فقال سبحانه «لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوي عزيز» (الحديد ٢٥) .

فمثل هذه الشجاعة يباركها الله سبحانه ، فقد خرّج امة لا تهاب الخطوب ، وتستعذب الموت في سبيل الحياة الحرة الكريمة . قال ابو بكر الصديق في وصيته الى خالد بن الوليد : احرص على الموت توهب لك الحياة .

وكان خالد بن الوليد يسير بين الصفوف يحرض الناس على القتال ويقول : يا اهل الاسلام ان النصر عز ، وان الفشل عجز ، وان مع الصبر النصر .

وهذا النصر لا يأتي به الا من صبروا فغفر الله لهم واثابهم فتحا مبينا «يا ايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم» (محمد ٧) .

وقال تعالى «ان ينصركم الله فلا غالب لكم» . (آل عمران ١٦٠) .

ولا يحقق النصر الا من حملوا ارواحهم فوق اكفهم ، وآمنوا بأن الحق لا بد منتصر ، وانه سيخلفهم خلف صالح يقتدى بهم في رفع راية الحق وازهاق كلمة الباطل ، قال بعضهم :

تموت على حد الظبات نفوسنا

ولسنا على غير السيوف تسيل

وخطب عبدالله بن الزبير الناس لما بلغه قتل مصعب اخيه فقال : ان يقتل فقد قتل ابوه واخواه وعمه . انا والله لا نموت حتفا ، ولكن نموت قصعا بأطراف الرماح وموتا تحت ظلال السيوف ، وان يقتل مصعب فان في آل الزبير خلفا له .

وطرف الشجاعة الاخر هو شجاعة اللسان والجنان ، او الشجاعة الادبية قال الشاعر :

الـــراي قبـــل شجاعـــة الشجعـــان
هـــو أول وهـــي المحــــل الـــثاني

واذا همـــا اجتمعـــا لنفـــس حـــرة
حـــازت مـــن العليـــاء كـــل مكـــان

وقد تمثلت الشجاعة كلها في اسلافنا ، وقد كان الواحد منهم يقف في وجه زعيمه وقائده وبوجه اليه نقده البناء الذي يعمل به هذا الزعيم ، وليس بعيدا عن اذهاننا موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد وقفت منه امراة تقول له : اخطأت يا عمر ، ويرد هو عليها بحلم المؤمن والزعيم العظيم : اصابت امراة واخطأ عمر .

اين نحن من هذا كله ؟ لقد غابت الشجاعة الاصيلة عن مدركاتنا ، لم نعد ندرك أن الشجاعة تتمثل في اقامة شعائر الدين وتقويم الاخلاق واصلاح السياسة وانتظام المعاملات بين الناس .

وتناسينا أن الشجاعة هي اطلاق لسان العالم الاصيل بوعظ جاهل غليظ القلب أو مترف متشعب الاهواء وصاحب سلطان لا يحب الناصحين .

وتجاهلنا أن الشجاعة الادبية تدعو الرجل الى أداء الشهادة بصدق ونزاهـــة دون أن يهاب ذا جاه أو سطوة .

ولولا هذه الشجاعة الادبية في قلوب الفئة القليلة لحرم كثيرون من الضـــعفاء حقوقا يأكلها الاقوياء ، ولا سبيل الى اعادتها اليهم الا بالقضاء العادل الشجاع قـــال سبحانه «ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه» .

مضى عرب ، وبقى عرب ، لقد شجع اولئك فجبنا ، آمنوا فكفرنا ، انتهجوا نهج رسول الله (ص) فتنكبنا هذا النهج ، تآلفت قلوبهم على الهدى ، فتفرقنا بددا لفساد قلوبنا وغشاوة على عيوننا « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

صدق الله العظيم

القناعـــة

عن أبي هريرة عن النبي (ص) «ليس الغنى عن كثرة الغرض ، ولكن الغنى غنى النفس» .

وقال عليه السلام «من اصبح وأمسى آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه كان كمن حيزت له الدنيا بحذافيرها» .

وقد عرف الرسول (ص) في حديثيه الشريفين القناعة أبلغ تعريف وأوجزه ، وبها يحوز صاحبها سعادة الدارين .

والقناعة هي رضى المرء بما في يده ، وشكر الله على رزق يومه شكرا يستوجب معه رضى الله وسلام النفس الذي لا يتأتى الا من خلال ايمان المـــرء وتسليمه بما قدر له قال تعالى «وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم» (الحجر ٢١) .

وقال سبحانه «قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له» (سبأ ٣٩) .

وبسط الله الرزق لعباده وقدره له ان هو الا لحكمة لا يعلمها سواه سبحانه ، وذلك يصدر — فيما أرى — من خلال تقوى من يرزقه الله ، فان المال بين أيدي الناس امتحان لهم ، فقد يكون هذا نعمة على البعض ، وقد يكون نقمة على آخرين ، قالوا :

قد ينعـــم الله بالبلوى وان عظمـــــت

ويبتلـــي الله بعض القوم بالنعـــــم

فالمال الذي يحوزه اناس لا ينفقونه في طاعة الله ومرضاته ، بل في الآثام والمعاصي هو نقمة عليهم . وكل مال ينفق في سبيل الله وفيما شرعه هو نعمة على اصحابه مهما قل ونزر . قال رسول الله (ص) «كل معروف صدقة وما انفق الرجل على نفسه واهله كتب له صدقة ، وما وقى به الرجل عرضه فهو صدقة ، وما انفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها الا ما كان من نفقة في بنيان او معصيـــة» .

ولا يتبادرن الى الذهن ان المال الذي ينفق في البنيان يقي الرجل عرضه به اغضاب لله ، ولكنه البنيان الذي يقصد به صاحبه زينة الحياة الدنيا وزخرفها ، حتى يباهي به ويفاخر .

والقناعة لا تثمر لصاحبها الا الراحة ، وهي مال لا ينفد . قال سعد بن أبي وقاص لابنه : يا بني اذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة ، فانها مال لا ينفد ، واياك والطمع فانه فقر حاضر ، وعليك باليأس ، فانك لا تيأس من شيء قط الا اغناك الله عنه .

وقيل لابي حازم : ما مالك ؟ قال الغنى بما في يدي عن الناس ، واليأس عما في أيدي الناس .

وقيل لآخر : ما مالك ؟ فقال : التجمل في الظاهر ، والقصد في الباطن .

ويتجاهل او يجهل كثيرون منا فضل القناعة ، ويمضون في متاهات الحياة ، يقلد بعضهم بعضا ، ويباهي بعضهم بعضا . والتقليد هنا بطبيعة الامر ليس فيما يرضي الله او الضمير ، فهو ليس في علم ينفع ، وهو ليس في خير يشفع ، هو تقليد للقشور في طول الحياة وعرضها .

وهؤلاء يبحثون عن رزق غدهم قبل ان يفكروا برزق يومهم ، وكأن الرزق اليومي بات مضمونا ، اما رزق الغد فهو بفعل اجتهادهم .

وهم كثيرو التطلع الى المزيد عما في ايديهم ، وعما قسم الله لهم ، وذلك يدل على عدم رضاهم وقناعتهم بما قدر لهم . قال النبي (ص) : «ان روح القدس نفث في روعى : ان نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها ، فاتقوا الله واجملوا في الطلب» . وقال تعالى فيما حكى عن لقمان الحكيم «يا بني انها ان تك مثقال حبـــة من خردل فتكن في صخرة او في السموات او في الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبـــير» .

ومن صور عدم القناعة في حياتنا ما نشاهده من تصارع على وسائل الحياة المادية التي باتت مطمح اولئك ، ممن يجدون في هذه المظاهر اساسا لحياتهم مغفلين جوهرها الاصيل القائم على رضى الانسان المطلق عن نفسه وثقته بها ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

وهذه الثقة وحدها هي الكفيلة ببعث القناعة في نفس صاحبها ، وتبعده في الوقت ذاته عن ميدان الصراع والتنافس ، لاقتناء ما يثقل الكاهل ، كما يفعل الكثيرون .

وهؤلاء المتنافسون كثيرو التطلع الى ما في ايدي الناس ، وما في بيوت الناس مع ضيق ذات اليد ، كل ذلك حتى يقال عنهم انهم يملكون ويقتنون فيحصل التفاخر الاعمى والتباهي المقيت الذي يجر عليهم الوبال في اجسادهم واعصابهم وعقولهم وجيوبهم .

قال الحسن : ابن آدم لست بسابق اجلك ، ولا ببالغ املك ، ولا مغلوب على رزقك ، ولا بمرزوق ما ليس لك فعلام تقتل نفسك ؟

وقالت الحكماء : اقل الدنيا يكفي واكثرها لا يكفي .

وعدم القناعة تجر الانسان الى الشكوى والتبرم من الحياة ، ومن تقسيم الارزاق فيها ، وهو في هذا كافر بنعمة الله التي قدرها له ، فكل يوم من أيام المرء مقسم فيه رزقه ، الذي لا ينازعه فيه سواه . قال علي بن ابي طالب : الرزق رزقان : فرزق تطلبه ورزق يطلبك فان لم تأته اتاك .

وشكوى المرء تثير من حوله التضجر والتبرم وشماتة الاعداء ، فقد حدث بعضهم قال : سمعني شريح وانا اشتكي بعض ما غمني الى صديق لي . فأخذ بيدي وقال : يا ابن اخي ، اياك والشكوى الى غير الله ، فانه لا يخلو من تشكو اليه ان يكون صديقا او عدوا . فأما الصديق فتحزنه ولا ينفعك ، واما العدو فيشمت بك . اما سمعت قول العبد الصالح «انما اشكو بثي وحزني الى الله» فاجعله مشكاك ومفزعك .

وفي مجالسنا واجتماعاتنا تدور احاديث كثيرة ، ومعظمها — ان لم تكن كلها — يبحث في امور الناس ، ففلان مثلا اشترى كذا ، وفي بيت فلان كذا وكذا ، وفلانة تلبس كذا او تتزين بكذا ، وهكذا احاديث لا تنتهي الا لتبدأ من حيث انتهت ، وهي تحمل طابع الايمان المطلق بالزيف والزخرف التي تبعد صاحبها عن طريق الحياة السوي الاصيل .

ولا هم لهؤلاء الا ان يجاروا غيرهم وهما فيما يصنعون ، حتى لا يبدوا اقل منهم في تظاهراتهم التي جعلوها مقياسا للبشر ، وكأن الانسان جسد فارغ في الاعماق الا ما يصبغه من الخارج ويزخرفه .

وباتت هذه الفئة المتظاهرة المتصارعة في دوامة الاقاويل التي تلوم وتنتقد وتقرع دون وجه حق . ذلك لانها فئة بهرتها الشكليات فحكموا على سواهم من خلالها .

ونجت — بفضل الله — من هذه المهاترات القلة القليلة التي آمنت بالاصل والجوهر والاساس ، فلم تعد تكترث لتلك الاقاويل والسخافات ، التي هي بالنسبة لها فقاعات تطفو على السطح فتذوب في لجة الحياة «فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض» (الرعد ١٧) .

وقال بعضهم :

غنى النفس يغنيها اذا كنت قانعا
وليس بمغنيك الكثير مع الحرص

وان اعتقاد الهم للخير جامع
وقلة هم المرء تدعو الى النقص

وقالوا :

الفقر في النفس وفيها الغنى
وفي غنى النفس الغنى الاكبر

العمل في الاسلام

عيد آخر من الاعياد العصرية المفتعلة هو عيد العمال في الاول من أيار من كل عــــام .

وفي هذا اليوم يهب العالم فجأة ، وكأنه يفاجأ بأن للعمال عيدا ، متجاهلين ان الدين الحنيف قد سبق العالم كله الى الاحتفال بالعمل والعامل .

والآيات التي تحث على العمل واجر العامل كثيرة قال تعالى «ولا تبخســـوا الناس اشياءهم» . وقال رسول الله (ص) : «اعطوا الاجير اجره قبل ان يجف عرقـــه» .

فالاسلام حرص على هذه الحقوق ، فرفع من شأن العامل ، واعلى قدره ، وحرم استغلاله ، وهضم حقوقه ، واغتصاب عرقه ودمه من قبل صاحب العمل الذي هو واحد منهم ، وليس الها معبودا ، بما اعطاه الله من سلطة المال وسطوة الجاه .

وكثيرا ما نسمع ان فلانا مثلا قد استخدم عمالا لقاء اجر معين ، ولكن ما ان يحين موعد تسلمهم اجرهم حتى يفاجأوا بانتقاص هذا الاجر عما اتفقوا عليه .

قال رسول الله (ص) في حديثه القدسي ، قال الله تعالى : «ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته ، رجل اعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حرا واكل ثمنه ، ورجل استأجر اجيرا فاستوفى منه ولم يوفه اجره» .

واولو العزم من الرسل خير قدوة لنا في تأكيد قيمة العمل الشريف ، الذي يدعم كيان صاحبه ، ويعطيه الثقة بقدراته البناءة وطاقاته المعطاءة مهما كان عمله.

فمهنة نوح عليه السلام هي النجارة وصناعة السفن «واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ، ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه» (هود ٣٧) .

ومهنة داود عليه السلام الحدادة «ولقد آتينا داود منا فضلا ، يا جبال أوبي معه والطير والنا له الحديد ان اعمل سابغات وقدر في السر واعملوا صالحا اني بما تعملون بصير» .

واشتغل موسى عليه السلام برعي الغنم عشر سنوات اجيرا في أرض مدين قبل ان يبعثه الله رسولا .

وكان سيدنا محمد (ص) يرعى الغنم في صدر شبابه ، ثم اشتغل بالتجارة في مال خديجة بنت خويلد زوجه رضي الله عنها . قال رسول الله (ص) : «ما اكل احد طعاما قط خيرا من ان يأكل من عمل يده» .

فالاسلام يحث على العمل ، ويبيح للعامل ان يجني ثمار عمله ، وكفاء جهده . قال سبحانه «فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض ، وابتغوا من فضل الله» (الجمعة ١٠) .

بل انه يرغب في العمل الى ابعد الحدود فيقول تعالى «فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه» . وقال رسول الله (ص) : «اذا قامت القيامة على احدكم وفي يده فسيلة فليغرسها» .

الى جانب هذا فان العمل يجب ان يكون عاملا من عوامل اسعاد صاحبه ، فان لنفسه عليه حقا «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا» (القصص ٧٧) .

وبلغ من تكريم الاسلام للعامل ان فضله على المتعبد ، فقد ذكر رجل عند النبي (ص) بالاجتهاد في العبادة والقوة على العمل ، وقالوا صحبناه في سفر فما راينا بعدك يا رسول الله اعبد منه ، كان لا ينفتل من صلاة ، ولا يفطر من صيام . قال النبي (ص) : «فمن كان يمونه ويقوم به ؟ قالوا : كلنا . قال : كلكم اعبد منه» .

كما ان العامل كالمرابط المجاهد في سبيل الله سواء بسواء فقال تعـــالى «وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله واخرون يقاتلون في سبيل الله».
وقال رسول الله (ص) : «العائد على اهله وولده كالمجاهد المرابط في سبيل الله» .
وقال عليه السلام «اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بنفسك ثم بمن تعول» .

وهذه اليد التي تعمل قد باركها الاسلام واحبها الله فقال رسول الله (ص) «هذه يد يحبها الله ورسوله» .

وقد وعد الله العاملين الذين يجهدون لكسب عيشهم بالجزاء الاوفى يوم القيامة ، فضلا عما يكسبونه في حياتهم الدنيا من نعمة وستر . قال تعالى «وتلك الجنة التي اوتيتموها بما كنتم تعملون» .

وشرط هذا الاجر الرباني النية الصالحة التي تكسب العامل النشيط ثناء رب العمل في الحياة الدنيا ، وجزاء الله تعالى في الآخرة .

روى كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : مر على النبي (ص) رجل ، فرأى أصحاب رسول الله من جلده ونشاطه فقالوا : يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله ؟ فقال رسول الله (ص) : «ان كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على ابوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى رياء ومظاهرة فهو في سبيل الشيطان» .

وعفة النفس وكفها عن مسألة الناس لا تتأتى الا بالعمل الشريف مهما كان ضئيـــلا .

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ص) : «لان يأخذ احدكم احبله فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من ان يسأل الناس اعطوه ام منعوه» .

وجاء رجل الى الرسول (ص) يسأل فقال له اما لك مال ؟ فقال : لا فأعاد عليه السؤال مؤكدا . فقال عندي حلس (أي بساط) نجلس على بعضه ونتغطى

ببعضه ، وقدح نشرب به . فقال ايتني بهما ، فجاءه بهما فعرضهما على من كان عنده قائلا من يشتري مني هذين الى ان باعها بدرهمين ، فأعطاه اياهما وقال : اشتر بأحدهما طعاما لعيالك واشتر بالاخر فأسا ، وأمره بأن يعود اليه فعاد اليه فوضع له خشبة في الفأس فقال اذهب واحتطب، ولا ارينك خمسة عشر يوما فذهب ثم عاد اليه بعد خمسة عشر يوما ومعه عشرة دراهم . فقال يا رسول الله بارك الله لي فيما امرتني به فقال : هذا خير من ان تأتي يوم القيامة وفي وجهك نكتة المسألة .

والعامل المؤمن النشيط يعمل على مضاعفة جهده في الانتاج ليتحقق المطلوب في وقت اقل مما هو مقرر له ، وبذلك نعمل على دفع المجتمع في دروب الرفعة والعزة والاكتفاء الذاتي ، اقتداء برسول الله (ص) ، وهو يشجع عمار بن ياسر رضي الله عنه حين كان يحمل حجرين حجرين في بناء مسجد المدينة ، بينما سائر الناس يحملون حجرا حجرا .

وليس ذلك الا لادراك الرسول (ص) قيمة العمل في بناء المجتمع الاسلامي ، حيث يكسب العامل الكسب الحلال من عمل يده .

عن سعيد بن عمير عن عمر رضي الله عنه قال : سئل رسول الله (ص) : اي الكسب اطيب ؟ قال : عمل الرجل بيده ، وكل بيع مبرور» .

وعن عبدالله بن محصن رضي الله عنه ان رسول الله (ص) قال : «من اصبح آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

تلك هي سعادة الحياة الآمنة ، حيث سلام النفس وطمأنينة الجوارح ، وهذه لا تتأتى الا بعد معاناة العيش ومكابدته .

عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله (ص) : «من أمسى كالا من عمل يده امسى مغفورا له» . صدق رسول الله

الحلف بالله والطلاق

قال تعالى : «ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم ان تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم . لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم» (البقرة ٢٢٤ — ٢٢٥) .

خلق الله السموات والارض وما بينهما ، وخلق الانسان واستخلفه في الارض، وسخر له مخلوقاته «سخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» .

وهذا دليل قاطع على شرف الانسان وعلو قدره وسمو قيمته ، مما يحمله بداهة على الشكر لخالقه بما انعم الله عليه وان يقدس ذاته وجلاله واسمه تقديسا ينم عن شكره وعرفانه وايمانه .

وهذا يتحقق في صدقه اذا تحدث ، واخلاصه اذا تعامل ، وادائه الامانة اذا اؤتمن ، وانجازه الوعد اذا وعد ، بعفوية تحول دون القسم او الحلف بالله .

ولكن انسان اليوم قد ضيع في متاهات المادية المظلمة ، وانساق مع غرائزه في بهيمية لا تعرف الرفق ، وانجرف مع تيار الحياة التي يسوقهم سوق النعاج الى الذبح ، اولئك «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا» .

ضل سعي اولئك حين انتهكوا قدسية الله سبحانه وحرمته ، واتخذوا من اسمه تعالى وسيلة الى اغراضهم الدنيوية الرخيصة ، وبات اسمه قسما يقسمون به في الباطل قبل الحق ، ويحلفون به في الهزل قبل الجد «اولئك الذين لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم» .

ونكاد نقابل بالحلف بالله في جميع مجالات حياتنا ومعاشنا ، وبين طبقــات مجتمعنا في صور كثيرة .

فمن هذه صورة البائع يحلف لك بالله ألف مرة على ان البضاعة كذا مثلا ثمنها ديناران ولكنه يبيعها لك بدينار اكراما لك . منطق اعوج ولسان آثم وقلب مريض ، هو يتحدث بهذا كله متوهما انه صادق . فأين ربحه اذن اذا كان يحلف صدقــا .

ولكنها ايمان ينخدع بها البســطاء السذج ممن تدور رؤوسهم عندهــا ، ويعتقدون معها ان هذا التاجر او ذاك هو على الحق كل الحق . قال (ص) : «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم . قال فقراها رسول الله (ص) ثلاث مرات . قال أبو ذر خابوا وخسروا من هم يا رسول الله ؟ قال المسبل — أي ازاره كبرا — والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» .

صورة اخرى نعيشها ، فتشتري فلانة مثلا شيئا بمبلغ معين متواضع . ولكن ما ان تسألها عن ثمنه حتى تحلف لك حلفا غليظا بالله انه بالثمن كذا — تزيد طبعا في ثمنه — لعلها تكبر في اعين السائلين وآذانهم . هذا هو اعتقادها بل وهمها للاسف .

قال سبحانه «ولا تطع كل حلاف مهين» وقال رسول الله (ص) : «اليميــن الغموس تدع الديار بلاقع اي خرابا» .

صور كثيرة لا حصر لها تتخذ اسم الله حلفا تتمسح به ، وان دل ذلك على شيء فهو يدل على ان الحلف باطل اذ لو كان صدقا لما احتاج الى هذه اليميــن الغموس . فالصدق لا يحتاج الى تأكيد ، وهو يعلن عن نفسه ويعلي امره بين الناس في صراحة ووضوح .

اما الحلف الآخر فهو الحلف بالطلاق ، وهذه آفة كثيرين في مجتمعاتنا ، فلا تكاد تجلس في مجلس حتى تسمع عليه بالطلاق ، وعليه بالحرام ، وعليه بكذا وكذا . ولو كان هناك غير الطلاق والحرام لحلف به .

أمر غريب تستحيل معه معظم النساء مطلقات طليقات ، ذلك لان الرجال في غمرة انسجامهم وانشراحهم في احاديثهم باتوا مطلقين بالجملة ، اذ ان الواحد منهم ما يكاد يطلق امراته مائة مرة في الجلسة الواحدة ، حتى يعرج على زوج صديقه او رفيقه او سواهما يريد ان يطلقها منه كما طلق امراته غيابيا وهزوا .

الى هذا الحد تصل قداسة الزواج عند بعض الرجال . قال رجل لعبدالله بن عباس : اني طلقت امراتي مائة تطليقة ، فماذا ترى علي ؟ فقال ابن عباس : طلقت منك لثلاث . وسبع وتسعون اتخذت بها آيات الله هزوا .

وكتب الى عمر بن الخطاب من العراق ان رجلا قال لامراته (حبلك على غاربك) . فكتب عمر بن الخطاب الى عامله ان مره يوافيني بمكة في الموسم . فبينما عمر يطوف بالبيت اذ لقيه الرجل فسلم عليه . فقال عمر : من انت ؟ فقال : أنا الذي امرت ان اجلب عليك . فقال له عمر : أسألك برب هذه البنية ما اردت بقولك (حبلك على غاربك) ؟ فقال له الرجل : لو استحلفتني في غير هذا المكان ما صدقتك . اردت بذلك الفراق . فقال عمر بن الخطاب : هو ما اردت .

وطلقت هذه المراة نتيجة اللغو ، كما تطلق الكثيرات في ايامنا ومع هذا يعود ازواجهم فيجامعونهن ويلدن لهم البنين والبنات ، الذين يكونون حراما من الحرام — استغفر الله — .

وأرى هنا أن أذكر انواع الطلاق كما جاء به الشرع .

فالطلاق ثلاثة انواع : الطلاق الرجعي كأن يقول الزوج لزوجه انت طالق او مطلقة او طلقتك . وفي هذا يجوز للزوج مراجعة زوجه دون شروط رضيت او ابت بدون عقد ومهر جديدين .

والطلاق البائن بينونة صغرى وهو ما يكون قبل الدخول او بعده بأن يقول الزوج لزوجه انت علي حرام او انت بائن او طالق اشد الطلاق او اخبث الطلاق ؛ فلا يجوز لها ان يعيدها اليه الا بعقد ومهر جديدين سواء كانت في العدة او بعد انقضائها بشرط رضاها .

ثم الطلاق البائن بينونة كبرى وهو الطلاق المكمل للثلاث ، فلا يجوز ان يعقد عليها الا اذا تزوجت زوجا غيره بعد انتهاء عدتها من الاول زواجا مقصودا لذاته — لا بقصد التحليل الذي يلجأ اليه الجهلة — ويعاشرها معاشرة الازواج ، ثم يفترقان او يموت عنها ، وتنتهي عدتها . قال سبحانه «فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فان طلقها فلا جناح عليهما ان يتراجعا ان ظنا ان يقيما حدود اللـــه» (البقرة ٢٣٠) .

فأين يقف بعدئذ اولئك الحالفون المطلقون ؟ فالسنون تمر ويهرم الآبـــاء ويشب الابناء ، ويكون فيهم العقوق والجحود لابائهم . ويعجب الناس ويدهشون ، ويستهول الاباء ويستفظعون موقف الابناء منهم ، وهم قد ولدوهم من اصلابهم .

وينسى اولئك انهم ولدوهم من اصلابهم ، ولكن بطلاق امهاتهم طلاقا اتخذوه هزوا ،وبنوا الحرام على الحرام . فكان الابناء من هذا كله ، نتيجة لاستهانة الاباء برابطة الزوجية المقدس ، لكون الجزاء من جنس العمل ، وتلك سنة الله «ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا» .

الاستئذان

قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها احدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم . وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم . والله بما تعملون عليـــم» .

تعالج الآيات الكريمات ما للبيوت من حرمة وقداسة معالجة دقيقة .

فالبيوت هي السكن الذي يفيء اليه الناس لاراحتهم من عناء العيش ، ومشاق الحياة ، فيها تطمئن قلوبهم ، وتسكن نفوسهم ، وترتاح ضمائرهم .

من هنا جمعت الآيات كل ما يتعلق بالبيوت لتحفظ لها تلك الحرمة من أن تمس ، وهذه القداسة من ان تهان .

وتحفظ البيوت على أصحابها عورات ، يجاهد الانسان كي يحبسها ويعقلها . وهذه ليست عورات البدن فحسب ، وانما هي عورات المأكل والمشرب والملبس .

وهناك امر اخطر من هذا ، فالبيوت تحفظ على الانسان عورات مشاعـــره النفسية . اذ ليس اقسى على الانسان الضعيف الباكي من ان يفاجئه احد في بيته ، هو في حالته تلك .

فليس اذن احفظ لقداسة البيوت من الاستئذان قبل الدخول اليها ، لما فيه من تقليل فرص النظرات العابرة القاهرة ، بما تجر وراءها من بلايا كثيرة لا تؤمن عـــاقبتها .

والسلام هو لفظ الاستئذان ، هو اسم من اسماء الله سبحانه يوحي في النفس الامان والاطمئنان والالفة والاستئناس .

عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال «خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعا . فلما خلقه قال اذهب فسلم على اولئك النفر من الملائكة جلوس . فاستمع ما يحيونك فانها تحيتك وتحية ذريتك . فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله . فزادوه ورحمه الله . فكل من يدخل الجنة على صورة آدم . فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الان» (البخاري).

ويكون الاستئذان بالسلام ثلاث مرات قبل الدخول . عن قيس بن سعد (هو ابن عبادة) قال : زارنا رسول الله (ص) في منزلنا فقال : «السلام عليكم ورحمة الله» فرد سعد ردا خفيا قال قيس فقلت : الا تأذن لرسول الله (ص) ؟ فقال دعه يكثر علينا من السلام . فقال رسول الله (ص) : «السلام عليكم ورحمة الله» فرد سعد ردا خفيا . ثم قال رسول الله (ص) : «السلام عليكم ورحمة الله» . ثم رجع رسول الله (ص) واتبعه سعد فقال : يا رسول الله اني كنت اسمع تسليمك وارد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام . فانصرف معه رسول الله (ص) . وأمر له سعد بغسل فاغتسل ، ثم ناوله خميصة (ثوب خز او صوف معلم) مصبوغة بزعفران او ورس ، فاشتمل بها . ثم رفع رسول الله (ص) يديه ، وهو يقول «اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة» .

والاستئذان يكون ـــ كما تقدم ـــ من النظر حتى لا تسبق النظرة صاحبها الى داخل البيت الذي تستأذن اليه .

من هنا كانت السنة المشرفة للاستئذان باستقبال الباب بالركن الايمن او الايسر . عن عبدالله بن بشر قال : كان رسول الله (ص) اذا اتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الايمن او الايسر ويقول «السلام عليكم السلام عليكم» .

ادب وضيء رفيع يجهله بل يتجاهله كثيرون ، اذ يستقبل الواحد منا الباب بصدره ووجهه وعينيه وحواسه ، فما ان يفتح الباب الذي يستأذن اليه حتى

تقتحمه عيناه ، هنا وهناك في انحاء البيت ، بل انه قد يلج الى الداخل قبل ان يؤذن له بذلك ، معتمدا على عبارات جوفاء نتفوهها في ثنايا مجاملاتنا اليومية . فمثلا يقولون لفلان : تفضل في اي وقت ، البيت بيتك .

هكذا بسهولة ويسر ، يظن بعدها ذلك الانسان وهما ان كل دار اصبحت داره . فوجب عليه اقتحامها بلا استئذان . ولنا في رسول الله (ص) أسوة حسنة وهو القائل «زر غبا تزدد حبا» .

أعود الى الاستئذان فأقول : ان الاستئذان يستوجب ازاء دخول اي بيت بلا استثناء . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قلت أاستأذن على اخواتي ايتام في حجري معي في بيت واحد .قال : نعم . فرددت عليه ليرخص لي فأبى فقال : «تحب ان تراها عريانة ؟ فقلت : لا . قال : «فاستأذن» . قال : فراجعته ايضا . فقال : «أتحب ان تطيع الله» ؟ قال : قلت نعم . قال : فاستأذن» .

أما الاوقات التي لا يستقيم فيها الاستئـــذان للزيارة فقد حددها القرآن الكريم . قال تعالى «يا ايها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات. «من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء . ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن . طوافون عليكم بعضكم على بعض . كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم» .

غض البصر

قال تعالى «قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او آبائهن او آباء بعولتهن او ابنائهن او ابناء بعولتهن او اخوانهن او بني اخوانهن او بني اخواتهن او نسائهن او ما ملكت ايمانهن او التابعين غير اولي الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء . ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون» (النساء ٣١) .

الآيتان الكريمتان تنبهان الى موطن الخطر العظيم الذي يجتاح الانسان فتتمرد من خلاله غرائزه الحيوانية التي يفقد معها عقله ، وينحط بها عن مرتبة البشر .

وأساس هذا كله النظر ، وهو ضرب من الزنى ، الذي يجر الاعضاء كلها الى الخطيئة والفاحشة . قال رسول الله (ص) : «فالعين تزني وزناها النظر ، واللسان يزني وزناه النطق ، والرجل تزني وزناها الخطى ، واليد تزني وزناها البطش ، والقلب يهوى ويتمنى ، والفرج يصدق ذلك او يكذبه» (روضة المحبين ٩٣) .

وقال عيسى بن مريم عليه السلام «من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى في قلبه» .

فالعين تفتح السبيل امام مغريات الشيطان التي تسلك الى الانسان سبيلا لا تخطئه ، وهو سبيل المرأة .

عن سعيد بن المسيب قال : ما بعث الله نبيا فيما خلا الا لم ييأس ابليس ان يهلكه بالنساء ، ولا شيء أخوف عندي منهن . وما بالمدينة بيت ادخله الا بيتي وبيت ابنتي اغتسل فيه يوم الجمعة ثم اروح .

وقال بعضهم : ان الشيطان يقول للمرأة ، انت نصف جندي وانت سهمي الذي ارمي به فلا اخطىء ، وانت موضع سري وانت رسولي في حاجتي . فنصف جنده الشهوة ، ونصف جنده الغضب .

فالمرأة هي الاصل وهي المحور الذي تدور حوله الحياة فاذا صلحت صلحت الحياة ، وان فسدت كان الفساد .

ووضع الاسلام للمرأة من الاحكام والمبادىء ما يسيجها بسياج العفة والفضيلة ، وبين ان اكرامها يكون بالاعتراف بحقوقها التي تقتضيها اهليتها ، بابعادها عن مواطن الشبهات ومزالق الشهوات بنتا وزوجة واما تغرس في نفوس ابنائها معاني الشرف والفضيلة والرجولة

أما ان تخون المرأة هذه الكرامة فهذا يعني انها لا تستحقها ، وخيانة المرأة كرامتها تعني الكثير . فهي ان خانتها بنتا كان ذلك عارا وشنارا على نفسها واهلها . وان هي خانتها زوجة واما فهذا يعني انتهاك الحرمات واختلاط الانساب، وضياع الحقوق ، وفساد المودة بين الاهل والاقربين .

وبتنا نسمع الكثير عن بعضهن ، مما هو اغرب من الخيال .
احدى هذه القصص الواقعية تقول : ان فتاة علقت شابا اغراها بوعوده حتى حملت منه بالفاحشة .

وحانت ساعة الوضع حيث نقلتها الى المستشفى سيارة عرفت فيها معلومات عن السائق واسمه وعائلته وهكذا .

ووضعت هذه المرأة ، ، وحين سئلت عن اسم ابي الطفل ذكرت اسم سائق السيارة .

ولنا ان نتصور ما حدث له ، فقد جن جنونه ، وهو الانسان المستقر في بيته مع زوجته واولاده .

ومضت الامور على غير ما تشتهي الخطيئة ، فقد اجريت للرجل فحوصات شاملة وعميقة اثبتت انه غير قادر على الانجاب اي عقيم .

وهرع الرجل الى زوجه وقد فقد صوابه ، واعترفت امام ثورته بان اولاده هم اولادها من اخي زوجها .

وانتهى الامر بالرجل الى الجنون ، والمرأة بأولادها الى التشرد . ولا بد للخاطئة ان تسقط وان تنال العقاب في حياتها ، وبعد مماتها .

قال رسول الله (ص) : «يا معشر المسلمين اياكم والزنى فان فيه ست خصال : ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة . فأما اللواتي في الدنيا فذهاب البهاء ودوام الفقر ، وقصر العمر . واما اللواتي في الآخرة فسخط الله وسوء الحساب ودخول النار» .

والامر لا يحتاج الى تعليق ، يكفي ان اذكر قولا لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه ، اكفف ابصارهن بالحجاب ، فان شدة الحجاب خير لهن من الارتياب ، وليس خروجهن بأضر من دخول من لا يوثق به عليهن . فان استطعت ان لا يعرفن غيرك فافعل .

وقال بعضهم :

لا تأمنن على النساء ولو اخا

ما في الرجال على النساء امين

ان الامين وان تحفظ جهده

لا بد ان بنظرة سيخون

وليس لواحد منا ان يجهل او يتجاهل خطورة اختلاط الرجال بالنساء الاختلاط المحرم ، اذ انه ما خلا رجل بامرأة الا كان الشيطان ثالثهما كما يقول رسول الهدى صلوات الله عليه .

وان كثيرا من النساء ممن لا يشغل بالهن غير غرائزهن لا يؤتمن على عرض او شرف او بيت . فان الشيطان يعرض للواحدة منهن في صورة ذلك الرجل الذي يجهد نفسه آناء الليل واطراف النهار في اغراء النساء ، فيجمل نفسه ويحسن هيئته ، وينسق ملابسه ، ويزين كلامه ، ويطيب ريحه ، ويتفنن في الحيل والخداع حتى يفسد قلوب الحرائر على ازواجهن ، ويحرض قلوب الفتيات على آبائهن ، فينصب لهؤلاء حبالته وينشر على اولئك شبكته ، فتطلق المرأة زوجها او تخونه في بيته ، لان الله لم يجعل للمرء قلبين في جوفه ، وتفر البنت من ابيها حتى لا يكتشف ضياع شرفها .

وهكذا تنهار كرامة الرجال ، ويداس شرف الاسرة وتنتهك حرمة الاسلام وتشيع الفاحشة في الذين آمنوا «انه كان فاحشة وساء سبيلا» .

ويتناسى اولئك الغواة الفاسقون ان لهم ازواجا وامهات وبنات واخوات وما يفعلوه يرتد عليهم وعلى اهل بيتهم ، فقد جرت سنة الله سبحانه ان يكون الجزاء من جنس العمل قال الشافعي رضي الله عنه :

عفوا تعف نساؤكم في المحرم
وتجنبوا ما لا يليق بمسلم
ان الزنا دين اذا استقرضته
كان الوفا من اهل بيتك فاعلم

وليس لهذا كله غير العلاج الوحيد الذي شرعه الاسلام ، وهو منع اختلاط الرجال بالنساء داخل البيوت وخارجها الاختلاط المحرم . والقصص الواقعية المأساوية كثيرة في هذا الجانب .

وهذا الامر قد أكده رسول الله (ص) فانه ما خلا رجل بامرأة الا همت به او هم بها . قالوا : اولو كانا صالحين يا رسول الله . قال : «لو كانت مريم بنت عمران ويحيى بن زكريا» .

وقال عليه السلام : «لا يخلون رجل بامرأة ولو كان يقرئها القرآن» .

ثم ان مما يحول دون تفشي هذا الداء غيرة الرجل على اهله وهي الغيرة التي يرضى فيها الله ورسوله .

قال (ص) : «الغيرة غيرتان : فغيرة يحبها الله واخرى يكرهها الله . قلنا يا رسول الله ، ما الغيرة التي يحب الله ؟ قال ان تؤتى معاصيه او تنتهك محارمه قلنا : فما الغيرة التي يكره الله ؟ قال : غيرة احدكم في غير كنهه» .

ومثل هذه الغيرة المحبوبة تجعل الرجل حافظا امينا على اهله ، حين يحول دون دخول اي رجل غير امين ، فان تعود انسان ما على دخول بيت دخولا غير كريم يجعل منه عبدا لهذه العادة ، والعادة ان تمكنت من نفس صاحبها استعبدته، خاصة اذا كانت هذه في طريق الخطيئة المحرمة . فان لذة الحلال لا تساوي ولا تداني لذة الحرام عند النفوس البهيمية التي تمكنت منها غرائزها تمكنا اعمى .

فليتق الله المؤمنون في اهل بيتهم «يا أيها الذين آمنوا قوا انفسهم واهليكم نارا وقودها الناس والحجارة» . صدق الله العظيم .

في الدعاء

قال تعالى «واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان . فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون» (البقرة ١٨٦) .

ما احوج الانسان الى الله سبحانه في حال يأسه وبؤسه ،وما احوج الانسان الى خالقه في غمه وهمه . والمؤمن موصول ابدا بالسماء خالقها ، وهو اقرب ما يكون اليه حين تتأزم المواقف ، وتستحكم الامور ، وتتألب الايام ، وتحلك الليالي ، عندها لا ملاذ الا الله ، ولا ملجأ الى سواه ، فنفر اليه ، ونلوذ به ، ونحتمي بحماه، ونعتصم برحمته التي وسعت السموات والارض . فنبتهل اليه بالدعاء وخشوع القلب ، وسكون الجوارح ، متعلقين بحبال الخوف والامل والرجاء . وكلنا باعماقنا، ومشاعرنا ، واحاسيسنا وسريرتنا وظاهرنا ــ ايمان ويقين برحمته وعطفه . فهو خالقنا ورازقنا وهو الرحيم بنا «سيدخلهم الله في رحمته ان الله غفور رحيـــم» (التوبة ٩٩) . «والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم» (البقرة ١٠٥)

والدعاء مخ العبادة كما يقول رسول الهدى صلوات الله عليه «ليس شيء اكرم على الله عز وجل من العبادة» . والدعاء هو الذي نجى نوحا من الغرق ، وانقذ ابراهيم من النار ، ونجى اسماعيل من الذبح ، واخرج يوسف من البئر ، ورد على يعقوب بصره ، وكشف عن ايوب بلاءه ، ونجى يونس من بطن الحوت ، وانقـــذ موسى من فرعون وجنوده ، ووهب يحيى لزكريا بعد يأس وقنوط ، وهو الذي نجى عيسى من اليهود ، وهو الذي انقذ رسول الاسلام بعد ذلك كله من براثن المشركين «ثاني اثنين اذ هما في الغار» (التوبة ٤٠) وذلك بفضل اعتصامهم بالله ودعائهم له سبحانه «امن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعـــلكم خلفاء الارض» (النمـــل ٦٢) .

وقوله سبحانه «ادعوني استجب لكم» لا يربط الدعاء بوقت او مكان فالمؤمن متوجه ابدا الى الله ، موصول دائما بأسباب السماء ، ينتظر من الله تعالى فرجا والله سبحانه هو الكفيل بالفرج العاجل او الاجل حسبما تقتضيه حكمته التي تدق على افهامنا ومداركنا ، حتى يحين حينه ، فلكل امر حين «واذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون» (البقرة ١١٧) .

ومع هذا فقد ورد في محكم آيات دستور البشرية ، وفي احاديث رسول الله (ص) الشريفة اوقات يترصدها المؤمن للدعاء ، ايمانا منه ويقينا باستجابة الدعوات فيها ، وهذه الاوقات هي يوم عرفة من السنة ، ورمضان من الاشهر ، ويوم الجمعة من الاسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل . قال تعالى «وبالاسحار هم يستغفرون» . وقال (ص) : «ينزل الله تعالى كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الاخير فيقول عز وجل «من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له ؟» .

من هنا فان المؤمن يغتنم الاحوال الشريفة لدعائه . قال (ص) «الدعاء بين الاذان والاقامة لا يرد» . وقال (ص) أيضا «الصائم لا ترد دعوته» . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : ان ابواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله ، وعند نزول الغيث ، وعند اقامة الصلوات المكتوبة ، فاغتنموا الدعاء فيها . وقال مجاهد: ان الصلاة جعلت في خير الساعات ، فعليكم بالدعاء خلف الصلوات .

وتستجاب دعوة المؤمن في حالة سجوده قال ابو هريرة : قال النبي (ص) «اقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء ، وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي (ص) قال : «اني نهيت ان اقرأ القرآن راكعا او ساجدا . فأما الركوع فعظموا فيه الرب تعالى . واما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فانه قمين ان يستجاب لكم» .

والمؤمن حين يدعو الله ، فانه يتضرع اليه بكلمات تحكي مكنون نفسه وخشوع قلبه بخفوت صوت يحمل كل معاني التوسل والتبتل . قال سبحانه «ادعوا ربكم تضرعا وخفية» (الاعراف ٥٥) . وقال سبحانه بلسان زكريا عليه السلام «اذ نادى ربه نداء خفيا» (مريم ٣) . ويكون حاله في هذا حال فناء كامل في

ذات الله سبحانه ، ينسى المؤمن فيها نفسه وزمانه ومكانه . ولا يعود يحيا الا في لحظات الاتصال الدائم والارتباط الكامل بالسماء ، بخالقه ، بالرحمن الرحيم الذي لا تخفى عليه خافية في السماء والارض ، وتشعل لهيب دعائه دموع ساخنة تغسل ذنبا او خطيئة توبة واستغفارا . وقد بكى داود عليه السلام اربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه ، وحتى غطى رأسه . فنودي : يا داود، اجائع أنت فتطعم ؟ ام ظمآن فتسقى ؟ ام عار فتكسى ؟ فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حر جوفه . ثم انزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة . فقال : يا رب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة . فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره الا رآها فأبكته . قال : وكان يؤتى بالقدح ثلثاه ، فاذا تناوله ابصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه .

وكان يقول في مناجاته : الهي اذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الارض برحبها واذا ذكرت رحمتك ارتدت الي روحي . سبحانك الهي ، اتيت اطباء عبادك ليداووا خطيئتي ، فكلهم عليك يدلني . فبؤسا للقانطين من رحمتك وقد قال سيدنا محمد صلوات الله عليه «اذا احب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه» .

واذا دعا المؤمن ربه فانه يجزم الدعاء ويوقن بالاجابة ويصدق رجاءه فيه لانه يتوسل الى خالق الكون الكريم العادل ، ولانه يبتهل الى الله الذي لا يخيب لعبد رجاء قال (ص) : «لا يقل احدكم اذا دعا : اللهم اغفر لي ان شئت ، اللهم ارحمني ان شئت ليعزم المسألة فانه لا مكره له» . وقال (ص) «اذا دعا احدكم فليعظم الرغبة ، فان الله لا يتعاظمه شيء» . وقال (ص) كذلك «ادعوا الله وانتم موقنون بالاجابة ، واعلموا ان الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل» . وقال سفيان بن عيينة : لا يمنعن احدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فان الله عز وجل اجاب دعاء شر الخلق ابليس لعنه الله اذ قال «رب انظرني الى يوم يبعثون. قال انك من المنظرين» (الاعراف ١٥) .

وعلى داعي ربه الا يستبطىء الاجابة لقوله (ص) : «يستجاب لاحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي ، فاذا دعوت فاسأل الله كثيرا . فانك تدعو كريما» . وقال (ص) : «ان ربكم حيي كريم يستحيي من عبيده اذا رفعوا ايديهم اليه ان يردها صفرا» .

ويروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس رضي الله عنه ، فلما فرغ عمر بن دعائه قال العباس : اللهم انه لم ينزل الغيث بلاء من السماء الا بذنب . ولم يكشف الا بتوبة . وقد توجه بي القوم اليك لمكاني من نبيك صلى الله عليه وسلم . وهذه ايدينا اليك بالذنوب ، ونواصينا بالتوبة ، وانت الراعي لا يهمل الضالة ، ولا تدع الكبير بدار مضيعة . فقد ضرع الصغير ، ورق الكبير ، وارتفعت الاصوات بالشكوى ، وانت تعلم السر واخفى . اللهم فأغثهم بغياثك قبل ان يقنطوا فيهلكوا فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون . قال فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال.

مع ذلك كله قد يحدث انسان نفسه فيقول : دعوت الله كثيرا فلم يستجب لي ، وارد على هذا فأقول دعونا الله كثيرا ، وابتهلنا اليه طويلا . فقد دعوناه في رمضان وفي ليلة القدر منه ، وقبل رمضان في شعبان والنصف منه ، وفي عرفات وفي الصلاة وخارج الصلاة ، وفي السجود وفي السحر ، وفي كل زمان وفي كل مكان ومع ذلك لم يجب لنا دعاء . والسبب واضح ، فقد اقمنا بيننا وبين الله حجابا كثيفا من الذنوب والاثام والخطايا ، حجابا لا يخترقه دعاء ، ولا ينفذ منه رجاء ، فاسلامنا اسمي وتوحيدنا تقليدي وصلاتنا رياء ، وصيامنا جوع ، وقيامنا سهر ، وحجنا تهريج ، والقوي فينا يأكل الضعيف ، والغني يمتص دماء الفقير .

وما منا الا ظالم لنفسه ، او عاق لوالديه ، او مفسد لولده ، او قاطع لرحمه ، او منازع لاهله ، او خائن لصديقه ، او مغتاب لاخيه ، او نمام عليه ، او حسود له ، ناهيك ما نشاهده من رذائل ومنكرات وموبقات .

وكي يكون الله اقرب الينامن حبل الوريد ، وحتى يجيبنا قبل ان ندعوه ، ويعطينا قبل ان نسأله فان ثمن هذا هو تطهير القلوب والالسنة والايدي من ادرانها، وقبل هذا تطهير النفوس مما علق بها من سوء وشر و «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» . وقال (ص) : «ان الرجل ليطيل السفر اشعث اغبر مطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام يمد يديه الى السماء يقول : يا رب يا رب . فأنى يستجاب له ؟ » . وقال (ص) : «يا سعد اطب مطعمك يستجب لك» . هذا هو العلاج ، تطهير فتطهير . «فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» (غافر ١٤) . وصدق الله العظيم

الأم والامومة

قال تعالى «وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما . فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة . وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا» .

لقد اخترع عصرنا الحديث ضمن ما اخترع احتفالا بيوم الاسرة ، وعلى راسها الام في الحادي والعشرين من اذار الربيع في كل عام . وفي هذا اليوم يحرص كل فرد على المشاركة ، وهو يتقدم الى أمه بنتاج كده ، وزاد مشاعره وقلبه .

وعند هذه النقطة يتعاظم عجبي ، اذ كيف يغفل اولئك اعياد الام العريضة الطويلة في كل لحظة من لحظات الحياة ؟ ونحن نرانا نندفع بكل ما اوتينا من قوة لارضائها ، وهي تسخو وتسخو بعطائها الدائب الذي لا يفتر ، وهي بقلبها ، بروحها ، ومشاعرها واعصابها تشاركنا همومنا ، وتحاول جاهدة لو تحملهـا عنا ، لو تزيح ثقلها عن قلوبنا ، فتخفف آلامنا . عندها ، عندها تتفجر في اعمق اعماقنا ينابيع الحب الكبير لها ، والى جانب هذه الينابيع نقاط الم قد امتزجت بدمـوع سخية برا ورفقا بهذه الام ، وحالنا في داخلنا يهمس ، كيف تمضي هذه الحيـاة لو خلت من قلب ام ؟

وتتسلح الام بالدعاء الى الله حتى يخفف آلامنا ، ويبارك في فرحنا ، والسموات العلى تفتح ذراعيها لدعواتها قال (ص) : «دعوة الوالدة اسرع اجابة ، قيل يا رسول الله ، ولم ذاك ؟ قال هي ارحم من الاب ، ودعوة الرحم لا تسقط» .

واكرام الوالدين والاحتفال بهما ازلي منذ وجدا ، فسبحان الذي خلق الانسان، وخلق فيه غرائزه . وسبحان الذي خلق الزوجين الذكر والانثى . فآدم هو الاب ؛

وحواء هي الام . ومن هذين كنا .. آباء وامهات ، بنين وبنات ، اسرة مقـدسة متماسكة منذ الازل ، والى يوم يبعثون .

ومنذ كانت الاسرة نواة للخلق ، والابناء والبنات يرددون الانشودة الخالدة ، فهو التقديس الفطري ، والغريزة الطبيعة ، والحب العفوي الناشىء عن الاصل الواحد الذي لا يمكن ان ينفك بحال ، مهما طرأت عليه من ظروف شكلية لا تمس الجوهر ، فأنى توجهت ، فالاسرة هي الام انشودة الحـب والحنان والرحمـة والعطاء . والاب هو انشودة الشفقة والعطف والجلد والكفاح . والابناء يرددون الانشودة العظيمة مترجمة الى بر وتضحية واسعاد لهذين اللذين هما سبب الوجود في الحياة ، بما في هذه الحياة من علامات السعادة وآيات الهناء وسـلام النفس وطمأنينة الفؤاد .

فاحتفال الام أزلي منذ وجدت ، ويتمثل هذا في خلق آدم ، وهو رب اسرتهـا والملائكة هم من اقام ذلك الاحتفال بأمر من الله سبحانه ، حين امروا بالسجود له حين خلقه تعظيما وتكريما .

اما هدية الله سبحانه لاسرة آدم في شخصه فهي الخلافة عـلى الارض ، وهي الهدية المتجددة القائمة ما قامت على الارض حياة .

اليس عيد الاسرة عيدا ازليا مخلوقا مع الابوين ؟ الم تحتفل به السموات وملائكتها ؟ الم يكن أمر الله لملائكته تأكيدا على ديمومة هذا العيد وخلوده ؟ .

اما حكمة الله تعالى في اباء ابليس واستكباره عن السجود لآدم فانه اعلام واعلان عن تلك الفئة الغادرة الباغية الجاحدة حق الابوين . وهذه الفئة العامة تبقى في مستوى ابليس الفرد في العقوق والجحود . فهذا عصى ربه «فسجد الملائكـة كلهم اجمعون الا ابليس استكبر وكان من الكافرين . قال يا ابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي . أستكبرت أم كنت من العالين . قال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فانك رجيم . وان عليك لعنتي الى يوم الدين. قال : رب فأنظرني الى يوم يبعثون . قال : فانك من المنظرين الى يوم الوقـت

المعلوم . قال : فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين . قال : فالحق والحق اقول لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين» (ص ٧٣—٨٥) .

اقول : هذا عصى ربه ،اي ابليس ، وذاك العاق جحد والديه وانكر فضلهما، وذلك هو الكفر عينه ، والكفر بهما كفر بالله سبحانه ، ففي ارضائهما ارضاء لله ، وفي سخطهما سخط له تعالى ، وقد ربطت آياته المحكمات بين طاعتهما وطاعته «ان اشكر لي ولوالديك الي المصير» (لقمان ١٤) . وقال رسول الله (ص) : «اياكم وعقوق الوالدين فان ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام ، ولا يجد ريحها عاق» . فريح الجنة محرمة على العاق والديه مهما قدم من خير في دنياه . واي خير يقدمه المرء لا يعدل ذرة بر يمنحها والديه .

قال علي رضي الله عنه «لو علم الله شيئا في العقوق ادنى من اف لحرمه ، فليعمل العاق ما شاء ان يعمل ، فلن يدخل الجنة ، وليعمل البار ما شاء ان يعمل ، فلن يدخل النار» .

فأي امل يرجوه الانسان من العاق بعد تحالفه مع ابليس بعقوق والديه ، بل اي خير يرجوه العاق من نفسه ، واي نفع ؟ فهل يأمل خيرا في حطام الدنيا او في الاهل والولد ؟ فان من عق والديه عقه ولده .

قرأت فيما قرأت عبرة هائلة في قصة قصيرة : حمل شاب اباه الطاعن في السن على ظهره في الطريق الطويل المؤدي الى قريتهما . وفي منتصف الطريق طلب الاب من ابنه ان ينزله عن ظهره فيستريحا في ظل شجرة فأطاع الابن ، وجلس الاثنان يستريحان ، فتنهد الاب وقال : يا ولدي ، قبل خمسين سنة كنت شابا قويا مثلك وحملت ابي على ظهري في هذه الطريق ، وجلسنا نستريح تحت هذه الشجرة ذاتها .. ولن اعلق — ففيها ما يفوق كل تعليق — قال رسول الله (ص) : «بروا آباءكم يبركم ابناؤكم» .

فالوالدان هما امانة الله في ذمة الابناء ، . وبرهما والسعي عليهما واكرامهما يزيد في عمر الابناء . قال (ص) «بر الوالدين يزيد في العمر» ، وهو عند الله الجهاد العظيم الذي يعدل الجهاد والحج والعمرة . قال (ص) «ليس الجهاد من ضرب

بسيفه في سبيل الله ، انما الجهاد من عال والدته ، ومن عال والده في جهاد ، ومن عال نفسه كفا عن الناس فهو في جهاد» .

عن ابي امامة قال : قال رسول الله (ص) : «تجهزوا الى هذه القرية الظالم اهلها — يعني خيبر — فان الله فاتحها عليكم ان شاء الله تعالى ، ولا يخرجن معي مصعب ولا مصعف (اي ضعيف) . فانطلق ابو هريرة الى امه فقال : جهزيني فان رسول الله قد امر بالجهازة للغزو فقالت : تنطلق وتتركني ، وقد علمت ما ادخل المرفق يريد المخرج الا وانت معي ؟ قال : ما كنت لاتخلف عن رسول الله ، فأخرجت ثديها فناشدته لما رضع من لبنها ،فأتت رسول الله (ص) فأخبرته . فقال : انطلقي فقد كفيت . فأتاه ابو هريرة فأعرض عنه رسول الله (ص) . فقال : يا رسول الله، ارى اعراضك عني . لا ادري ذلك الا لشيء بلغك . فقال : انت الذي تناشدك امك واخرجت ثديها تناشدك لما رضعت من لبنها فلم تفعل ؟ أيحسب احدكم اذا كان عند ابويه او احدهما ان ليس في سبيل الله ؟ بلى هو في سبيل الله اذا ابرهما وادى حقهما» .

قال ابو هريرة : لقد مكثت بعد ذلك سنين ما اغزو حتى ماتت .
وكان رجل من النساك يقبل كل يوم قدم امه ، فأبطأ يوما على اخوته فسألوه فقال : كنت اتمرغ في رياض الجنة ، فقد بلغنا ان الجنة تحت اقدام الامهات .

وتمضي الحياة لتكمل دورتها الازلية ، ويمضي معها الابوان الشيخان وليس من زاد يتزودانه في مشوار الحياة غير بر الابناء بهما ، وذلك يشعرهما بأن ثمرتهما قد آتت اكلها خصبا متجددا ،وظلا وارفا يظللهما في شيخوختهما ، ودفئا حانيا يقيهما برد الوحدة في الدرب الطويل الطويل ، يجسد ذلك كله بريق يلمع في عيون البراعم التي تنفتح في حديقة ابنائهما ، وضحكات بريئة تزغرد في جنبات هذه الحديقة .

وهكذا رسالة ابدية متجددة ، الابوة والامومة . فولد اليوم هو الاب غدا ، وبنت اليوم هي ام في غدها ، ومن بعدهما الابناء ، ايام تدور ، وسنون تحكم دورة الحياة لتؤكد رسالة بقاء النوع على هذه الارض . وفي ذمة الابناء ، يبقى الدين الكبير لآبائهم وامهاتهم . قيل لمعاذ : ما حق الوالد على الولد ؟ قال : لو

خرجت من اهلك ومالك ما اديت حقه ! وتتجدد الاعياد ، الايام كلها للام اعياد . بل الساعات واللحظات كلها اعياد تغني فيها الاكوان انشودة الام التي كتبتهـــا السماء ، ولحنتها اقدس المشاعر ، والحياة هي مسرح الاحتفال ، ويبقى الاحتفال بالام قائما ما قامت هذه الحياة ، وما بقيت على الارض امومــــــــــــــــــة .

بســـم اللـــه الرحمـــن الرحيـــم

خاتمـــــــة

هذا الكتاب مجموعة أحاديث اذاعية ، قدمت في صباح كل ثلاثاء على مدى ثلاث سنوات تقريبا . وهي على كونها أحاديث اذاعية لم يكن يعوزها الرجوع الى المصادر والمراجع التي تبعدها عن أي عبث او فراغ .

وهي في الوقت ذاته تعتمد خلاصة تجارب عامة وخاصة ، وكلها تجارب يمر بها او ببعضها جميعنا .

ويلاحظ من يقرأ الكتاب امورا كانت في وقت اذاعتها مناسبة لكونها أحاديث اذاعيـــة ..

أول هذه الامور : بعض التكرار غير الممل الذي يلاحظ في مواضع تتشابه في بعض جوانبها ، وهذا بلا شك يغتفر لصاحبه حين يتوجه به الى مستمعيه ، الذي يفترض في بعضهم سماع هذا الحديث دون ذاك ، وفي مثل هذه الحالة يتحتم هذا التكرار الذي يعيد الى الاذهان خلاصة ما لم يسمع ، أو الربط بين ما سمع وما لم يسمع .

والامر الثاني : هو عدم ذكر المصادر والمراجع ، وهي كثيرة بلا حصر ، حيث كان الحديث أحيانا يعتمد على أصول كثيرة حرصا على جوهر الشريعة قرآنا كريما وحديثا شريفا ، وما دار حولهما من دراسات وكتب وتآليف .

وبعد .. فليس يرجى مما تقدم غير النفع المخلص للقاريء الكريم ، وقبل هذا ، الثواب من الله سبحانه وتعالى «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» .

والحمد لله أولا وآخراً

الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة



من آثار المؤلفة

١ ـ كليلة ودمنة ـ رسالة ماجستير ـ مطبوعة في الادب العربي .

٢ ـ العباس بن الاحنف ـ رسالة دكتـوراه ـ مخطوط ـ دراسة مقارنة .

من مطبوعات مكتبة الرسالة .